مراتب الهداية في قصة أهل الكهف

تمهـــــــــــــــــــــــــــــــيد :-

تجدر الإشارة أن المشيئة ذكرت في هذه السورة في أكثر من موضع ، بمناسبة أن أهل الكتاب حاججوا النبي ﷺ في قصة أهل الكهف وذي القرنين فأخبرهم بأنه سوف يجيبهم ونسي أن يقدم المشيئة ، وفي قصة صاحب الجنين لما لم يستثن ، وفي قصة موسى مع الخضر لما قال (ستجدني إن شاء الله صابرا) ، وفي قصة ذي القرنين لما نسوا أن يقدموا المشيئة في خرق الجدار ، حتى إذا (أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَحْرِقُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاسْتَثْنَى)[1].

وقد جاء في سبب نزول هذه السورة أن قريشًا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة المنورة؛ ليتأكدوا من صدق نبوة الرسول ﷺ . فقالت لهم الأحبار" :سلوه عن ثلاثٍ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل:"

فتية ذهبوا في الدهر الأول (أصحاب الكهف)

رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها (ذي القرنين)

عن الروح ما هي؟

وعندما سألته قريش، قال النبي ﷺ " :أُخبركم غداً بما سألتم عنه" ولم يستثنِ (أي لم يقل: إن شاء الله .(فاحتبس عنه الوحي خمس عشرة ليلة، حتى حزن الرسول ﷺ وأرجف أهل مكة به. ثم نزل جبريل عليه السلام بسورة الكهف لترد على أسئلتهم، وتوضح سبب احتباس الوحي. [2]

كما بيّنت السورةُ الكريمة أنَّ حالَ المؤمنِ الملتَمِسِ هُدى اللهِ في هذه الدنيا يدورُ بين مسارَيْن :إمّا اعتزالٌ لباطلِ الكفرِ وصيانةٌ للدِّين، وإمّا ثباتٌ في مَيادينِ الجهادِ ضدَّه.

ثم نرى مدى تبايُنَ أحوالِ الخلقِ في الارتفاقِ والاتّكاء؛ عندما نقارن بين موقف من يَرتفِقُ بالكهفِ عُزلةً وفراراً بدِينه، ومن يَركنُ إلى الدُّنيا ومَتاعِها فلا يَقوى على كَبَدِها، لِيَنتهي به المآلُ مقلِّباً كفَّيْهِ حسرةً وندامة.

كما لاحَ في سِياقِها ارتفاقُ موسى—عليه السلام—بِبَعضِ زادِهِ وغدائِهِ في رحلةِ طلبِ العلم، وفي ذلك إشارةٌ بليغة إلى مَسِيسِ حاجةِ السَّائرِ إلى البُلْغَةِ والزَّاد؛ فَكُلَّما خَفَّ زادُ المرءِ تجرَّدَ وعَظُمَ عزمُه، وكلَّما استغرقهُ الانشغالُ بالفضولِ تَقاعَسَتْ هِمَّتُه عن مُواصَلةِ السَّفَر.

ولم يكن ذو القرنين—على عِظَمِ مُلكِهِ—بِمَعْزِلٍ عن طلبِ المدَد، فالإنسانُ مَهمَا بَلغَ شَأوُهُ من القوةِ والتمكينِ يَظلُّ قاصراً بِمُفرَدِه، مُحتاجاً إلى تضافُرِ الجُهودِ وإعانةِ غيرِه، وهو ما تجلَّى في قوله: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)؛ لِيُبرهِنَ على أنَّ النَّهضةَ بالأمَّةِ ودَفْعَ بَأْسِ أعدائِها يَقومانِ على العملِ الجماعيِّ والمشروعاتِ الكُبْرى.

هكذا تَفتَحُ سورةُ الكهفِ للمُتدبِّرِ آفاقاً رَحِبةً، كُلَّما وَلَجَ من أحَدِ أبوابِها، أبْصَرَ سِرّاً مَكنوناً، وعَجَباً عُجاباً يُبْهِرُ العقول.

---

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 428 رقم 3078 وصححه الألباني ج3 ص 73 رقم 2520

[2]) السيرة النبوية لابن اسحاق ج1 ص70 ذكره عن ابن عباس

محاور سورة الكهف

مقدمة السورة (الكتاب قيما) و(الأرض زينة)

- قصة أصحاب الكهف
- تعقيب على القصة وأمر بالصبر مع المؤمنين
- قصة صاحب الجنتين
- تعقيب على القصة وتهوين من شأن الدنيا وذكر مشاهد من الآخرة
- أسباب الإعراض عن الذكرى
- قصة الخضر وموسى
- قصة ذي القرنين

خاتمة السورة

مقدمة سورة الكهف

(الكتاب قيما) و(الأرض زينة)

قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي **أَنْزَلَ** عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ **عِوَجًا** (1) **قَيِّمًا لِيُنْذِرَ** بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ **وَيُبَشِّرَ** الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) **وَيُنْذِرَ** الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ **كَبُرَتْ** كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ **بَاخِعٌ** نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ **زِينَةً** لَهَا **لِنَبْلُوَهُمْ** أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا **جُرُزًا** (8)

قال ﷺ (فمن أدركه منكم يعني الدجال فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف)[3] .وقال ﷺ (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال) [4] . وقد أشار الطيبي لمعني وفائدة تناسب هذه العصمة مع السورة ، (أن الله كما عصم الفتية من بغي قومهم عليهم ، فكذلك يعصم من يقرأ سورة الكهف من الدجال)[5] فهو باغي آخر الزمان ، ولعل المقصد من تخصيص العشر الأول بالفضل أن فواتح سورة الكهف جمعت مقاصد السورة كلها .

فقد بدأت هذه الافتتاحية ، بحمد الله تعالى على أعظم نعمة أنعم بها على البشرية، أن أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ الكتاب (القرآن الكريم) كأعظم نعمة ، ويتميز بأنه : خالٍ من التناقض والخطأ والميل، بل هو مستقيم في أحكامه وتشريعاته وأخباره. ووصفه بأنه" **قَيِّمًا** "أي: قائم بمصالح العباد في الدين والدنيا، ومستقيم لا يحيد عن الحق. ومبينا وظيفته بأنها: **الإنذار بعقاب من خالف والبشارة** بالخلود لمن آمن وعمل صالحا .

ثم تكرر الإنذار في المطلع نفسه تأكيدًا وتشديدًا ليخص بالذكرِ الذين قالوا (اتخذ الله ولدا) صلفًا وعُتانًا، دحضًا لعقيدتهم الباطلة التي لا دليل عليها لا من علم وإنما هو تقليد أعمى لآبائهم ، وكاد النبي ﷺ يهلك نفسه أسفا وحزنا على هؤلاء أنهم لا يصدقونه ويؤمنوا بما هو كذب وافتراء على الله .

ثم جاءت المقدمة بفقرة مكملة لما سبق ، موضحة **طبيعة الدنيا وزخرفها وأن** حكمة الوجود **فيها هي الابتلاء"لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" ثم الفناء ، "وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا"** ، فالدنيا لابد وأن تفنى ، ويفنى ما عليها ، من هنا استبان أنها لا تعدل شيئا ، فإذا كان ابتلاء الله لعباده بها ، فقد سهل الابتلاء على من سهله الله عليه . فمَنْ أدرك أنَّ حقيقتَها ابتلاءٌ واختبار، هانَ عليه الخطْبُ، وتيسَّر عليه الصبرُ بمعونةِ الله وتوفيقه

قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) بدأت مقدمة السورة بالحمد لله على نعمة إنزال (الكتاب) وهو القرآن الكريم على عبده ونبيه محمد ﷺ ، فالحمد لله على نعمة الإسلام التي كفت بالمرء شرفاً ورفعة، قال سبحانه (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام/161)

---

3) رواه مسلم

4) رواه مسلم

5) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج7 ص 198 رقم 2146

فالحمد هو استغراق القلب في الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة، والثناء عليه بأسمائه وصفاته جموداً وحركة.وهو رأس الشكر . فالعبد لا يصل إلى كمال مقام العبودية حتى يرى منة الله عليه في كل شيء ، فيلهج لسانه بالحمد حباً لا مجرد عادة.

ومقام الحمد من أعظم المقامات ، فعن عمران بن حصين قال رسول الله ﷺ (**إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمادون**)[6].أي (الذين يكثرون حمده أي الثناء عليه على السراء والضراء)[7]. لأن الله لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا وكان خيراً له، فهو سبحانه محمود على عدله ومنعه كما هو محمود على فضله وعطائه.

ويقوم الحمد على ثلاثة أركان لا يصح بدونها :-

الحمد بالقلب :وهو خضوعه، ومحبته، ومعرفته بالنعم.

الحمد باللسان :وهو الثناء على الله، والتحدث بنعمه، والاعتراف بها.

الحمد بالجوارح :وهو الانقياد لطاعته، واستعمال النعم فيما يرضيه[8].

والعبد المشار إليه في الآية هو محمد ﷺ رسول الله ، شرفه بتلك الصفة بأنه عبد الله ، ووصفه بذلك دليل على إحاطة الله به وكفايته له (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**) ، ولم يكن النبي ﷺ يبتغي شرفاً يعلو على هذا المقام العبودي الخالص، بل كان يفخر به ويتشبث بأعتابه؛ ويظهر هذا جلياً فيما رواه أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ (إِنَّ اللَّهَ **خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ** فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنْ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ)[9] .

قوله (..وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) (1) ينقل ابن إسحاق في تفسيرها :(ولم يجعل له عوجاً، قيماً)؛ أي: مستقيمًا معتدلًا لا اختلاف فيه ولا تباين[10]. وفي هذا اللفظ الإلهي دلالةٌ قاطعة على ألا سبيل لتدبُّر كتاب الله والاهتداء بآياته إلا عبر صراطه المستقيم الذي شرعه لتلقّي هذا الوحي. فالحمد لله الذي نزّه كتابه المنَزَّل هدايةً للبشرية عن كل عيبٍ أو نقصٍ أو شائبة، وجعل مسالك الاستدلال عليه ناصعةً لا اعوجاج فيها؛ لتنسجم آياته انسجامًا تامًّا مع الفِطَر السوية والعقول السليمة.

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال" :أنزل الكتابَ عدلًا قيّمًا، ولم يجعل له عوجًا ملتبسًا""[11] ، ويعقّب أبو حيان في بحره محددًا المعنى :(أي: جعله مستقيمًا) .[12]وإنَّ هذه الاستقامة لتختصر على السالكِ طريقَ معرفة الله تعالى؛ إذْ إنَّ كل مسلكٍ ملتوٍ أو غير مباشر هو بمعزلٍ عن الجادة الصحيحة. فمن ابتغى معرفة الخالق سبحانه، وجد شواهد

---

[6]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج18 ص 124 رقم 14964 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة 4 ص 112 المجلدات158/4

[7]) المناوي : التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 632

[8]) ملخص ما ذكره ابن القيم في مقام الحمد في كتابه الماتع مدارج السالكين

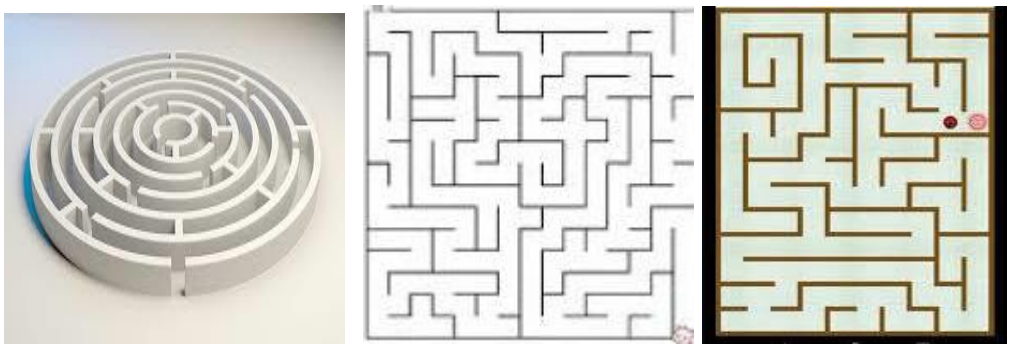
[9]) رواه البخاري ج2 ص 268 رقم 446

[10]) السيرة النبوية لابن اسحاق ج1 ص70

[11]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 180

[12]) البحر المحيط ج7 ص 423

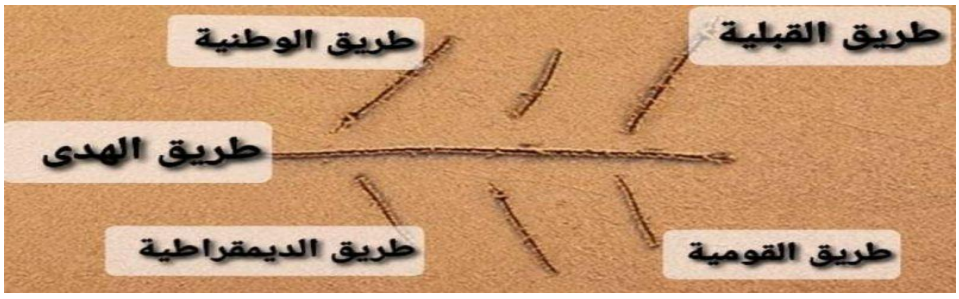
ربوبيته ودلائل وحدانيته شاخصةً في كل ذرّةٍ من خلقه، وأدرك الحق الذي دلّ عليه الكتابُ إدراكًا مباشرًا دون مواربةٍ أو عوج؛ فسبحانه من وصف نفسه بما يليق بجلاله وكماله، ونزّه ذاته العليّة عن كل نقص.



قوله (قَيِّمًا) قال ابن جزي في قوله (قيما) أي مستقيماً ، وقيل قيماً على الخلق بأمر الله تعالى ، وقيل قيماً على سائر الكتب بتصديقها)[13] ، ونظير ذلك [14]قوله (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً **فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**) [البينة/1]، وقوله تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ **يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ**...) [الإسراء/9] .

قال ابن العثيمين (قيما) **حال من الكتاب وليس صفة** لأنه نكرة والكتاب معرفة فلا يوصف المعرفة بالنكرة ، وقد وقع اللفظ حالا للكتاب **لبيان استقامته** ، (غاية الاستقامة، **فنفي العيب أولًا، ثم أثبت الكمال ثانيًا**)[15].

ويبسط هذا المفهوم ما روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ فَقَالَ **هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ** ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**)[16].



وقد نبه ابن القيم إلى أهمية اغتنام الإنسان لأوقات عمره في الاهتمام بكتاب بالله ، فذكر أنه (حقيق بالإنسان أن يبذل ساعات عمره، بل أنفاس حياته، **في نيل المطالب العالية** والنجاة من الخسران المبين. **ولا سبيل إلى ذلك إلا**

[13]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 932
[14] الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 192
[15]) انظر في هذا المعنى تفسير ابن العثيمين ج6ص3
[16]) رواه ابن ماجة ج1 ص 13 رقم 11 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج1ص7 رقم 11

بالإقبال على القرآن؛ تفهُّمًا وتدبُّرًا، واستخراجًا لكنوزه، وإثارةً لدفائنه، مع توجيه العنايةِ إليه، وتركيز الهمةِ عليه. فهو الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والهادي لهم إلى سبل الرشاد. فالحقائق، والطرق، والأذواق، والمواجيد الصحيحة؛ كلها لا تُقتبس إلا من مشكاته، ولا تُجنى إلا من شجراته) [17]

فليس ثمة ما هو أنفع للعبد في دينه ودنياه، ولا أقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن وطول التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته. إنها تبصّر العبد بمعالم الخير والشر بحذافيرهما، وتكشف له عن طرقهما، وأسبابهما، وغاياتهما، ومآل أهلهما. كما تضع في يده مفاتيح السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، فتشيد بنيانه وتوطد أركانه.

هذه النظرة القرآنية تُمثّل للعبد صورتي الدنيا والآخرة، والجنة والنار، **رأي العين في قلبه**، وتنقله بين الأمم ليرى أيام الله فيهم، فيقف على مواقع العبر، ويشهد عدل الله وفضله. ومن خلاله، **يتعرف العبد على ربه**: بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبما يحبه ويبغضه، **وبصراطه الموصل إليه**، وما ينتظر السالكين بعد الوصول والقدوم عليه، كما **يكشف** له قواطع الطريق وآفاتها.

وليس ذلك فحسب، بل تُعرّفه الآيات بنفسه وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتبين له سبل أهل الجنة وأهل النار: أعمالهم، وأحوالهم، ومراتب سعادتهم وشقائهم، وتمايز الخلق في مواطن اجتماعهم وافتراقهم.

وبالجملة: فالقرآن يُعرّف العبد بالربّ المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وكرامته إذا وفد عليه. وفي المقابل، **يحذره من ثالوث الغواية**:-(ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما يلقاه المستجيب لدعوته من الهوان والعذاب بعد الوصول)"[18].

قوله (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) (2) بين سبحانه الغاية من هذا الكتاب بأن وظيفته الإنذار من عذاب الله **لمن سلك طريقا معوجا** ، والبشارة للذين أمنوا وعملوا الصالحات أولئك الذي سلكوا طريق الله المستقيم ، قال ابن اسحق في النذارة **(عاجل عقوبة في الدنيا**، وعذابه في الآخرة من عند ربك الذي بعثك رسولاً)[19].

وقوله (من لدنه) قال قتادة أي (**من عنده**)[20] ، وهذا يدل على أن هذا البأس عقوبة مباشرة من الله لهؤلاء الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم ، قال ابن عجيبة (**نازلاً من قِبَله** ، في مقابلة كفرهم وتكذيبهم) [21]

وفي هذه الآية تصريح بأن كل من يخرج عن منهج الله يصاب ببأس الله ، يقول الله تعالى :﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: 44). فتبيّن الآية أن الخروج عن المنهج ونسيان التذكير يعقبه استدراج ثم أخذ أليم مباغت.

---

[17]) مدارج السالكين ج1 ص7
[18]) مدارج السالكين ج1 ص452 مختصرا
[19]) السيرة النبوية لابن اسحاق ج1 ص70
[20]) الدر المنثور للسيوطي ج6 ص 336
[21]) البحر المديد ج3 ص 375

وقال تعالى :﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم **بَأْسُنَا** بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم **بَأْسُنَا** ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف 97-99).

ويقول الله تعالى :﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ **مَعِيشَةً ضَنكًا** وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: 124) .

وقال رسول الله ﷺ (يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ

- لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ **الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ** الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا .
- وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا **أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ** عَلَيْهِمْ .
- وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا **مُنِعُوا الْقَطْرَ** مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا .
- وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ **عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ** فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ .
- وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ **بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**)[22]

قوله (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) (2) فالمؤمن يبشر بالثواب والأجر الحسن ، ولا يهمه غير ذلك ، فما ينتظره من الله هو الذي يجعله مستقيما في سبيله لربه لا يحيد عن طريقه ، بل يظل يجتهد في السير ، لأن الله بشره بالأجر الحسن نظير العمل الصالح ، قال الثعالبي «الأجر الحسن» نعيمُ الجنة ، ويتقدَّمه خير الدنيا[23] ، قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ **سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا** ﴾ [مريم:98] .

ومن البشريات للمؤمن في الدنيا أن يوفقه الله للعمل الصالح ، **فكلما فرغ من عمل صالحا انتقل لعمل صالح آخر** .. وهكذا حتى يعسله الله تعالى ، فعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ اذا أراد الله بعبد خيرا **عسله** قلت وكيف يا رسول الله يعسله قال **يوفقه لعمل صالح قبل موته بسنة فيقبضه عليه**)[24]، وفي رواية الحاكم (إذا أحب الله عبدا عسله قال : يا رسول الله و ما عسله ؟ قال : يوفق له عملا صالحا بين يدي أجله **حتى يرضى عنه جيرانه** . أو قال . **من حوله**)[25].

قوله (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) (3) تأكيد على أن متاع الدنيا مهما طال فإنه لا يقارن بنعيم الآخرة الأبدي الذي لا ينفد ولا ينقطع ، وفي ذلك تأكيد على صفة الخلود لأهل الجنة في الجنة ولأهل النار في النار ، يقول النبي ﷺ (**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ** أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ **هَذَا الْمَوْتُ** وَكُلُّهُمْ

---

[22]) رواه ابن ماجة ج12 ص 25 رقم 4009 وحسنه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 370 رقم 3246
[23]) تفسير الثعالبي ج2 ص 407
[24]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج5 ص 55 رقم 4656
[25]) رواه الحاكم ج1 ص 490 رقم 1258 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 169

قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ **يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ** ثُمَّ قَرَأَ "وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ **إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**" وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا "وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ")[26]

قوله (وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) (4) كرر الإنذار مرة أخرى ليكون إنذار مخصوص لمن افترى على الله الكذب ونسب له الولد ، يقول النبي ﷺ (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى **يَشْتِمُنِي ابْنُ آدَمَ** وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتِمَنِي وَيُكَذِّبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ **أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا** وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي)[27].

قوله (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (5) هذه الكلمة جُرْمٌ عظيم وتطاولٌ جسيم ،وكبيرة في حق الله تعالى ؛ لأن الله تعالى منزه عن النقص والحاجة ، فإنهم لما نسبوا لله الولد ، فقد انتقصوا من قدر الله تعالى ، وهو ليس بحاجة إلى الصاحبة ولا الولد ، وفي هذا المقام يقول الحق تبارك وتعالى (**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا** * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * **أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**) ، وتتجلى خطورة الكلمة وعاقبتها في تحذير النبي ﷺ إذ قال (**وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**)[28].

ولم يقف طغيانهم عند حدّ هذا الذنب الشنيع، بل تجاوزوه إلى جعل هذا الولد المزعوم شريكًا في منصب الألوهية، بل ورفعوا أنفسهم — زورًا وبهتانًا — إلى مقام أعلى من مقام النبوة والاصطفاء بمزاعم البنوة، متمردين على مقام العبودية الخالصة الذي شُرِّف به نبينا محمد ﷺ . وهذا المسلك هو حجر الزاوية في العقيدة الوثنية، حيث اتخذ كلٌّ منهم إلهه هواه. ويردُّ القرآن الكريم حاسمًا هذا التخرُّص بقوله (**وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا** * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) (مريم/88-95).

إن دعواهم هذه محضُ أوهامٍ وظنون، لا تستند إلى أثارةٍ من علم، بل هي خرافة نسجها الخيال واستكبر بها العقل عن عبادة ربه، وتوارثها الأبناء عن الآباء بلا تبصر أو وعي، حتى خُيِّل إليهم أنهم نورٌ انبثق من الذات الإلهية وتجسد في صورة بشر.

وفي توجيه الآية يقول ابن عاشور (عطف "ولا لآبائهم" لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) [الزخرف: 23]، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلدوهم)[29]، ويؤكد الإمام السعدي هذا المعنى بقوله (فأبان أن قولهم هذا بلا علم ، ومن المعلوم: أنه **كل قول بلا علم من الطرق الباطلة**. ثم صرح بقبحه قولُه: (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) ، ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل (إن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً)[30].

---

[26]) رواه البخاري ج14 ص 358 رقم 4361
[27]) رواه البخاري ج 10 ص 465 رقم 2954
[28]) رواه البخاري ج20 ص 119 رقم 5997
[29]) التحرير والتنوير ج15 ص 13
[30]) القواعد الحسان في تفسير القرآن ج1 ص 137

هكذا بادر القرآن الكريم **بتعرية ضلال أهل الكتاب** وبيان بطلان عقائدهم، وذلك **قبل الانتقال إلى معاتبة النبي** ﷺ على عدم استثنائه بالمشيئة (قول: إن شاء الله) حين سألوه؛ **وفي هذا الترتيب حكمة بالغة** لدفع أي توهّم بأن لهؤلاء المشركين مَزِيّة أو فضلًا في هذا الموقف. فالضلال محيطٌ بهم، والنبي ﷺ هو صاحب الحق والهدى، وما فاته من أمر المشيئة قد تداركه الوحي بالتسديد، ومن هنا جاء العتاب الرقيق مواساةً له بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾.

قوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (6) يبرز الحالة النفسية التي كان عليها النبي ﷺ من شدة الوجد والأسى حين رأى قومه غارقين في ضلال العقيدة، وعاجزين عن سداد الاستدلال. فقد تملكته الرغبة العارمة في هدايتهم، والتعجل لإسلامهم؛ حتى إنه لما سألوه عن قصص السابقين اختبارًا لنبوته، استبشر بفأل الاستجابة، وتلهف لتقديم الجواب ظنًا منه أن الإجابة الفورية ستكون طريقهم إلى التصديق واليقين. ومن فرط هذا الحرص والتلهف، جزم لهم بحصول الجواب قريبًا دون أن يستثني المشيئة الإلهية فيقول: (إن شاء الله)

ولقد كان **الأجدر بهؤلاء المشركين** –بدلًا من هذا السلوك الملتوي، والذهاب لاستشارة أهل الكتاب للاستيثاق من أمارات النبوة– أن **يسلكوا أقصر الطرق** وأقواها للوصول إلى الحق؛ وذلك **بالنظر المستقيم والتدبر الواعي في الكتاب** الذي أُنزل على نبيّهم. فلو أنهم تفكروا فيه بإنصاف، لوجدوا فيه شفاءً لما يختلج في صدورهم، وحلًا لجميع تساؤلاتهم دون تكلف أو اعوجاج.

وهكذا هو شأن الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان؛ إذ يفيض وجدانهم إشفاقًا وأسفًا على أقوامهم حين يواجهون بالصدّ والتكذيب، بل وبالمجادلة العقيمة في صدق دعوتهم.

لذا، جاءت الآية الكريمة لفتة إلهية رحيمة تشفق على الرسول ﷺ وتواسيه؛ ناهيةً إياه أن يُهلك نفسه غمًّا لعدم إيمانهم[31]. وهو المعنى ذاته الذي تكرر في موضع آخر نهيًا عن استسلام النفس للحسرة المهلكة، كما في قوله تعالى : ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

فالحزن الذي ينهى الله عنه عباده ودعاته هو ذلك الحزن المقعد الذي يُفضي إلى اليأس والتكاسل عن تبليغ الدعوة؛ إذ يتعين على الداعية التسليم المطلق لمشيئة الله وقدره، فهو سبحانه وحده المحيط علمه بمن يستحق الهداية ممن حقت عليه الضلالة.

قوله (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا..)(7) فذلك هو موطن الاختبار والابتلاء ، فالزينة قد تشغل المرء عن وظيفته وهدفه ، وقد لا ينشغل بها ويظل مشغولا بعمله ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ **وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[32] ، وفي ذلك تعريض لفتنة الذين كفروا بالدنيا ، ولا يزالون يجادلون النبي ﷺ في الحق .

---

[31]) في هذا المعنى الشنقيطي : أضواء البيان ج3 ص 201

32) رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925






قال تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)

قَوْلِهِ (..لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) (7) فعَنِ الحَسَنِ قَالَ أي "أشدهم للدنيا تركاً" [33]، ومعنى ذلك أن زهد المرء في الدنيا هو مدار هذا الابتلاء ومحله؛ فكلما تخلّص قلبه من فتنتها حَسُنَ عمله، وكلما ازداد تعلقاً بها ساءت أعماله. وفي السياق ذاته، يوضح الإمام ابن عاشور أن "الناس متفاوتون في حسن العمل، ومن درجات هذا التفاوت: درجة انعدام الحسن من أصله، وهي حالة الكفر وسوء العمل"[34]. ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية هذه القاعدة الجوهرية بقوله: "الفضل بنفس العمل وجودته، لا بقدره وكثرته"[35].

قوله (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا[36]) (8) يجلى لنا حقيقة الدار الدنيا؛ بأن الله سبحانه لم يكتب لهذه الدار أن تكون مستقرًّا للمتاع الدائم، بل جعلها مضمارًا للابتلاء ومحلًّا للاختبار. وإذا ما غفل الناس عن علة خلقهم، واستغرقوا في نعمها ظانّين أنها دار خلود وإقامة، حاق بهم غضب الله لإعراضهم، وتبدلت أحوالها إلى زوال؛ فينقلب عمارتها ونضارتها وزينتها إلى خراب) [37].

وقد أفاض المفسرون في بيان معنى الآية الكريمة، فذكر الشيخ الشعراوي في خواطره" :أنّ (الصعيد) هو طبقة التراب التي تعلو وجه الأرض ولا نبات فيها، و(الجُرُز) هي الأرض الخالية من الخضرة، أو التي كان بها نبات فاستأصله الجراد أو اجتاحته جائحة فأهلكته ."ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى :(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ)(السجدة: 27).

وفي السياق ذاته، يرى ابن كثير أن المعنى يؤول إلى " أنّا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكًا)[38] ، ويؤكده ابن جزي بقوله أي : سيفنى ما على الأرض من الزينة وتبقى كالأرض التي لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء بهجة"[39] .فهذه هي الحقيقة الغائبة؛ دنيا زُينت مؤقتًا لغاية الاختبار، ولا تلبث أن تتلاشى بمجرد انقضاء هذا الابتلاء، إذ لا بد لكل زينة أرضية من زوال وحتمية من خراب.

---

33 تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 182
34) التحرير والتنوير ج15 ص 18
35) مجموع الفتاوى ج4 ص 378
36) ترابا لا نبات فيه
37) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 374
38) تفسير ابن كثير ج5 ص 137
39) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 934

وتتطابق هذه الحقيقة القرآنية مع السُّنة النبوية الشريفة؛ حيث يقول الرسول ﷺ :(**إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**) [40]. وفي توجيه هذا الحديث، يذكر الحافظ ابن حجر :"أن فيه إشارة إلى الحث على التواضع، وإعلامًا بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة " .بينما يرى ابن بطال في الحديث" دلالة على هوان الدنيا على الله، وتنبيهًا على ترك المباهاة والمفاخرة؛ فكل ما هان على الله فهو في محل الضعة، وحقٌّ على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويُقلّ منافسته في طلبه" .ويضيف الطبري ملمحًا اجتماعيًّا ونفسيًّا بقوله "في التواضع مصلحة الدين والدنيا؛ فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء، ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة"[41].

ومن جماع هذه التوجيهات، ندرك أن العبد **كلما ازداد تعلقًا بالدنيا وشغفًا بها، سُلبت منه** ليزهد –قهرًا أو اختيارًا– فيما علق به قلبه. ويتجلى هذا المعنى بوضوح في قصص سورة الكهف؛ فهو ما حكته السورة عن "صاحب الجنتين" الذي غرّته زينة أرضه فحق عليها الهلاك، وهو ذاته الملمح الذي فقهه "أصحاب الكهف"؛ إذ عرفوا حقيقة الدنيا وزيفها، ففضّلوا هجران زينتها والآوي إلى الكهف فرارًا بدينهم وحماية لعقيدتهم من الفتنة.



وقال ابن كثير أي: (وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكًا)[42] ، قال ابن جزي (أي سيفنى ما على الأرض من الزينة وتبقى كالأرض التي لا نبات) فيها ، بعد أن كانت خضراء بهجة)[43]، فهذه هي حقيقة الدنيا أنها مزينة لأجل الاختبار والإبتلاء ، ثم لا تلبث حتى تفنى ، وذلك عندما ينتهي ذلك الابتلاء ، أي أن الدنيا مهما تزينت فلابد لها من خراب ، وقد بين الله ذلك .





[40]) رواه البخاري ج20 ص 157 رقم 6020
[41]) فتح الباري ج11 ص 341
[42]) تفسير ابن كثير ج5 ص 137
[43]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 934

وتُشير هذه الشواهد إلى حقيقةٍ إيمانيةٍ مفادها: أن العبد كلما ازداد تعلُّقاً بالدنيا خذلته، **لتُرغمه على الزهد فيما تعلَّق به قلبه**؛ وهو تماماً ما حلَّ بصاحب الجنتين كما قصَّت السورة. وفي المقابل، تتجلى هذه الحقيقة في قصة أصحاب الكهف الذين أدركوا جوهر الدنيا ففارقوها، وآووا إلى كهفهم حمايةً لدينهم من الفتنة.

وفي هذا السياق، يقول ابن عاشور تعقيباً على ورود الآية: «مناسبة موقع هذه الآية هنا خفية أعوز المفسرين بيانها، منهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت".

والذي يبدو لي أن مناسبتها ظاهرة وجلية؛ فالدنيا دار ابتلاءٍ استوى في اختبارها أصحاب الكهف وذو القرنين؛ فمَن عاش منهم في ضيق الكهف كمَن عاش في اتساع القصر، كلاهما لم يخرج منها بغير الإيمان بالله تعالى، ومن ثَمَّ فلا مبرر للحزن عليها ولا على أهلها.

ولعل هذا ما رمى إليه ابن عاشور في استطراده قائلاً: «والذي يبدو: أنها تسلية للنبي ﷺ على إعراض المشركين بأن الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلهم يشكرونه، وأنهم بطروا النعمة، فإن الله يسلب عنهم النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأنه سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل رسول الله ﷺ ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام) [44]، من ذلك نفهم أن العبد إذا زاد تعلقه بالدنيا تركته متحسرا عليها كصاحب الجنيتن أو منتبها من غفلته ليرجع إلى الله .

[44]) التحرير والتنوير ج15 ص 16

المحور الأول

قصة أصحاب الكهف

وفيها ثلاثة فصول :-

1- فرارهم بالدين واعتزال قومهم

2- لطف الله بهم

3- حكمة الإعثار عليهم

الفصل الأول من قصة أصحاب الكهف

فرار الفتية إلى الكهف بدينهم واعتزالهم قومهم

قال تعالى (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16)

قال ابن كثير: "هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك". وتتجلى مناسبة ذكر هذه القصة في كونها برهاناً ساطعاً يدحض ريبة المشككين في حقيقة البعث والنشور؛ تلك القضية الكبرى التي طالما اتخذها مشركو مكة ذريعة للإعراض عن الإيمان وتكذيب النبي ﷺ.

ولأن الحق سبحانه يجيب السائلين بالآيات الباهرات، فقد جاءت القصة رداً على سؤالٍ طرحه المشركون أنفسهم بإيعازٍ من أحبار اليهود اختباراً لصدق النبوة. وهنا تظهر مفارقة عجيبة وحجة دامغة عليهم؛ إذ كيف يسألون عن فتيةٍ أفاقوا من رقدتهم الطويلة بعد قرون خمدت فيها حواسهم ويُقرّون بها، ثم يستنكرون بعد ذلك قدرة الله على إحيائهم بعد موتهم يوم القيامة؟!

إن في تصديقهم بـ (**إمكان بعث**) أصحاب الكهف إلزاماً عقلياً لهم بتصديق النبي ﷺ فيما يبلغه عن اليوم الآخر، مما يمهد الطريق لفهم طلاقة القدرة الإلهية على البعث والحساب والجزاء.

وفي قوله تعالى (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)(9) قال ابن كثير أي: (ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلْق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر

والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم) [45]

وفي هذا السياق، يقرر الإمام مجاهد (قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك! ، ويؤيده محمد بن إسحاق: بقوله (ما أظهرت من حججي على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم)[46]

إن في طي الآية توبيخًا خفيًّا وتقريعًا مسكوبًا لأولئك الذين تعنّتوا وسألوا النبي ﷺ عن خبر الفتية ليمتحنوا نبوته. فقد **غفل هؤلاء عن ملكوت السماوات والأرض** وهي شواهد ناطقة بوحدانية الله، كما عميت أبصارهم عن آيات القرآن المتلوة التي تقيم ميزان العدل والحق في حياتهم.

وهكذا هو الإنسان في غرابته وعجبه؛ يستحث الخطى بحثًا عن معجزةٍ غابرة أو قصةٍ نادرة، ويغض الطرف عن الآيات المشهودة المعروضة في الآفاق، رغَم أن الشفاء والدواء لشكوكه كامنٌ في الاستجابة لما جاء به الوحي الباقي.

وفي تحقيق لفظ "الرقيم"، ينقل الإمام البخاري في صحيحه أن" الرقيم" هو الكتاب، من "مرقوم" أي "مَكْتُوبٌ مِنْ الرَّقْمِ "[47] .ورغم ما رُوي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– من أنه قال: «لا يدري ما الرقيم؛ أكتاب أم بنيان؟»، إلا أن المحققين وجّهوا القول بأنه الكتاب الذي حوى الشرع المستديم الذي تمسك به هؤلاء الفتية من دين المسيح عليه السلام[48].

ومن هذا المنطلق الفقهي الأصيل، ينبثق فقه ابن عباس لمراد الآية إذ يقول :(**الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم**) [49] ؛ فالوحي الخاتم هو النور الأتم والحجة البالغة الفاضلة على كل ما عداها.

تتجلى في القصة **ملامح التشابه البديع بين هجرة الفتية وهجرة المصطفى ﷺ وأصحابه**؛ فكما فرّ أصحاب الكهف بدينهم وعقيدتهم، مستمسكين بالرقيم الذي يهديهم إلى الحق، فقد هاجر النبي ﷺ بأصحابه من مكة إلى المدينة فرارًا بالدين، وحملوا في صدورهم القرآن العظيم غضًّا طريًّا؛ فكتاب الله عند الصحابة لم يكن مجرد سطورٍ مرقومة في أوراق، بل كان نورًا ينبض في حشايا القلوب ويقود حركة الحياة.

إن وجه العجب الأسمى في قصة الفتية أنهم آمنوا بكتبٍ في أيديهم، وهجروا ملاذّ الدنيا وزينتها، وأووا إلى وحشة الكهف وضِيقه انتصارًا لنسخٍ من الإنجيل الحق.

ويعضد هذا المعنى المعجز ما أُثر في الحديث الشريف حين سأل النبي ﷺ أصحابه: (**أي المؤمنين أعجب إليكم؟**). قالوا: الملائكة. قال: (وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟!). قالوا: فالأنبياء. قال: (وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟!). قالوا: فنحن. قال: (وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟! ولكن **أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها**)[50]

---

[45]) تفسير ابن كثير ج5 ص 138
[46]) تفسيرابن أبي حاتم ج9 ص 184
[47]) رواه البخاري ج11 ص 282
[48]) البحر المحيط ج7 ص 428 المحرر الوجيز لابن عطية ج4 ص 288 تفسير القرطبي ج10 ص 357 ، محمد بن عبد المنعم الجميري الروض المعطار في خبر الأقطار ج1 ص 271
[49]) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 184
50) ? حسن لغيره. رواه: أبو يعلى، والبزار، والحاكم، والبيهقي في ((الدلائل))، وابن عرفة في ((جزئه))، والإسماعيلي في ((معجمه))؛ بأسانيد لا تخلو من مقال، ولكن يقوّي بعضها بعضاً.وبمعناه روى أحمد والدارمي من حديث أبي جمعة، وحسنه الحافظ.
انظر : تحسين الشيخ المحدث / عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش للحديث – في تنبيه القارئ على تقوية ما ضعفه الألباني ج2 ص 18

فإيمان الفتية بالرقيم، كإيمان أتباع محمد ﷺ بالكتاب والسنّة دون رؤية العيان، هو ذروة اليقين وعجب الإيمان الذي يرفع صاحبه عند الله مكانا عليًّا.

إن مما يَبهر النَّفسَ حقًّا، ويأخذ بمجامعِ القلوبِ إعجاباً وإكباراً؛ أن ترى **عُصبةً من الفِتيةِ** قد خالطت بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهم، فاستمسكوا بما بين أيديهم من كتابِ اللهِ وبراهينِ وحيهِ الصادق، هازئين ببريقِ الدنيا وزخرفِها الفاني. فلمَّا ضاقت عليهم الأرضُ بما رحُبت، ونَاصَبَهم قومُهم العداءَ؛ **لم يجدوا مَفزعاً إلا أن يأووا إلى الكهفِ؛ حِفظاً لدينهم،** وصيانةً لتلك الرَّقائقِ المقدَّسةِ التي حَملت أنوارَ التوحيدِ وكلماتِ الإنجيلِ الحقّ.

قوله (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) (10) فالدنيا صغرت في أعين هؤلاء الشباب رغم زينتها واختزلوها في كهف يأويهم ، ولم ينشغلوا فيه بغير الدعاء وطلب الرحمة من الله وأن يهيء لهم من أمرهم رشدا ، فلم تشغلهم وحشة المكان ولا ضيق المسلك عن اللجوء إلى رحاب الله، لاهجين بالدعاء والتبتل






وفي هذا المسلك الإيماني تجسيدٌ حيٌّ لِما وجّه إليه المصطفى ﷺ في استشرافه لأزمان الفتن، حيث غدا العزل والفرار بالدين غنيمة للمؤمن؛ إذ يقول ﷺ **(يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ)**[51]وقد استنبط ابن بطال من هذا التوجيه النبوي فقه الاعتزال عند النوازل، مشيرًا إلى مشروعية الانفراد طلبًا لسلامة الدين، وخشية أن تنزل العقوبة الشاملة إذا شاع المنكر ولم يُغيَّر؛ فتكون تلك العقوبة حينئذٍ نقمةً على الفاسقين، وتمحيصًا وتكفيرًا للمؤمنين الصالحين الذين يُبعثون على نياتهم). [52]

قال (والحديث حسن لأن له شواهد منها ما رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومًا فقال : « ما من ماء » ؟ قالوا : لا ، فقال : « هل من شن » فجاؤا بشن فوضع بين يدي رسول الله - ﷺ - ووضع يده عليه ثم فرق أصابعه فنبع الماء إلى أن قال .. فقال : « يا أيها الناس من أعجب إيمانًا » ؟ قالوا : الملائكة ، قال : « وكيف لا تؤمن الملائكة وهم يعاينون الأمر » إلى أن قال : « ولكن أعجب الناس إيمانًا قوم يجيئون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني ويصدقوني ولم يروني أولئك إخواني » . ورواه أحمد ، والطبراني في الأوسط ، والبزار باختصار وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط . انتهى من مجمع الزوائد (جـ 8 ص 300) .

ومنها ما رواه البزار عن أنس قال قال رسول الله - ﷺ - : « أي الخلق أعجب». قالوا : الملائكة ... إلخ . قال الهيثمي : فيه سعيد بن بشير وقد اختلف فيه ، فوثقه قوم وضعفه آخرون وبقية رجاله ثقات أ . هـ . مجمع الزوائد جـ 10 ص 65 . ومنها ما رواه الإسماعيلي في معجمه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أي الخلق أعجب إيمانًا ؟ » قالوا : الملائكة . إلى قوله : « ولكن قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني » . انتهى . من الدرر المنثور (جـ 1 ص 26) .

ومنها ما رواه الطبراني عن صالح بن جبير قال : قدم علينا أبو جمعة الأنصاري صاحب رسول الله - ﷺ- بيبت المقدس ليصلي فيه ومعنا رجاء بن حيوة إلى أن قال : قلنا : يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرًا ؟ فذكره بمعناه . قال الهيثمي في مجمع الزوائد : اختلف في رجاله . ومنها ما رواه البزار عن عمر عن النبي - ﷺ - أنه قال : « أخبروني بأعظم الخلق عند الله منزلة ... » الحديث كما تقدم . قال الهيثمي : حسن المنهال بن عمرو وثقه أبو حاتم وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح (جـ 10 ، ص 65) .

فهذه الروايات المتعددة المتباينة تدل على أنه محفوظ صحيح كما جزم به الحافظ بن كثير والله أعلم .

[51]) رواه البخاري ج1 ص 31 رقم 18

[52]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج1 ص 71

وتجدر الإشارة إلى وصف أصحاب الكهف بأنهم فتية ، أي في ريعان الشباب ، وقد كان من المتصور في فكر غير المسلمين أن هذا السن هو سن طيش ومجانة ، لاسيما في البلدان غير الإسلامية ، ولكن هؤلاء الشباب لما وجدوا الفتنة قد أحاطت بهم فروا بدينهم ، بل إنهم آووا إلى الكهف ، وكأن هذا الكهف هو ملاذهم من شر الدنيا وفتنتها .

كما تجدر الإشارة إلى **الحالة النفسية التي أنعم الله بها على هؤلاء الفتية وهم في الكهف ، أنهم منشغلون بالدعاء** ، لا يطلبون فرارا من قدر الله ، ولا طمعا في الدنيا ، إنما **يلتمسون الرحمة والرشاد من الله** في أمرهم ، فعَنْ بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ الْقُرَشِيِّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو **اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا** وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ)[53].

قوله (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ) يتجلى فيه حفظ الله لأهل الكهف وتخفيف البلاء عنهم سنين حتى تبدل الحال عند قومهم ، فيبعثهم وقد استخلف الله خيرا منهم ، إذ يُعدُّ "الضرب على الآذان" كنايةً بليغة عن النوم العميق و**فقدان** الوعي. وقد وجّه الإمام البغوي هذا المعنى بقوله:أي (أنمناهم وألقينا عليهم النوم ، وقيل: معناه **منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم** فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه)[54]

لقد استغرق أصحاب الكهف في ركودٍ أشبه **بالغيبوبة**، ممتدٍ لسنوات طوال بلا طعام ولا شراب، في ظاهرة إعجازية تُبهر العقول وتستوجب التسبيح. وإن كان التعبير بـ "البعث" يُوحي بظاهر الموت لولا أن الأرض لم تأكل أجسادهم، إلا أن اللفتة القرآنية (ضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ) تؤكد أنهم كانوا أحياءً لا أمواتاً؛ إذ عُطِّلَت حاسة السمع لديهم مؤقتاً ليعيشوا في معزلٍ صَوتِيّ عن ضوضاء العالم الخارجي تضمن استمرار نومهم.

وتُمثّل هذه الحالة وضعاً بيولوجياً فريداً لا مثيل له في تاريخ البشر؛ فهي ليست غيبوبة طبية كاملة لعجز الجسد فيها عن البقاء دون طاقة أو ماء، وليست موتاً حقيقياً يفنى فيه الجسد ويتحلل. وبذلك تختلف حالهم تماماً عن حال "الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه" في قوله تعالى :(فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ)؛ حيث بليَ طعامُ الآخر وفنيَ حِماره، بينما عُصِمَ أصحاب الكهف من الفناء وبقوا في برزخٍ بين النوم والموت، تجسيداً لقدرة الله الباهرة.

قوله (لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) (12) تتجلى لنا حكمة باهرة من حكم البعث والنشور؛ فالعلة الغائية هنا هي إظهار "العلم الإلهي" للخلائق، وإقامة الحجة البالغة عليهم، تماماً كما في قوله سبحانه :(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ **إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ**) .وكما استقرّ في عقيدة أهل السنة والجماعة، فإن علم الله سبحانه أزليٌّ محيط بكل غيب وشهادة قبل كونهما، غير أن المراد هنا هو علم الظهور والعيان الذي يترتب عليه الجزاء؛ وهو ما جلاه الإمام الشنقيطي بقوله :"نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالماً به

---

[53]) رواه أحمد ج36 ص 25 رقم 16970 وضعفه الألباني : لكن يعمل به في فضائل الأعمال
54) تفسير البغوي ج5 ص 155

قبل ذلك دون خلقه"[55]، لتشرق في قلوب العباد حقيقة سرمدية واحدة: أن الله على كل شيء قدير، وأن علمه محيط بالظواهر والخوافي.

فقد وضع الله السبب موضع المسبب :فأطلق "العلم" (السبب) وأراد به "التمييز والظهور" (المسبب)؛ أي: لنُميّز ونجعل للناس وسيلة ليعلموا ويشهدوا أي الحزبين أضبط وأقرب للصواب في حساب مدة لبثهم ، فهناك فريقان كلاهما لبثوا قدرا من الزمان ، الفريق الأول هو فتية أهل الكهف ، لبثوا في الكهف أمدا قدر ما شاء الله ، فخفف الله عنهم البلاء بتلك النومة ، والفريق الثاني هم قومهم لبثوا في الشرك والعتو حتى أهلكهم الله واستخلف غيرهم ، فلما استيقظ الفتية وجدوا أن القوم الظالمين رحلوا وحل محلهم آخرين ليسوا مثلهم .فعن كنه هذين الحزبين، يذكر ابن جزي :"المراد بالحزبين الذين اختلفوا في الكهف في مدة لبثهم؛ فالحزب الواحد: أصحاب الكهف، والحزب الآخر: القوم الذين بعث الله أصحاب الكهف في مدتهم"[56] .

وهنا ينفتح للمتأمل ملمح تدبري بديع؛ إذ يضعنا المشهد أمام فريقين عاصروا الزمان ذاته، ووطئوا أرض الدنيا معاً؛ حزبٌ تقلب في أعطاف الترف والنعيم في قريته التي فر منها الفتية، فمضت بهم السنون ولم يُخلَّدوا، وحزبٌ فرَّ بدينه وعقيدته إلى ضيق الكهف الموحش، فاحتواه لُطف الله، وجعله مناراً للهدى عبر الأزمان.

وعند الموازنة الإحصائية بين المدة التي لبث خلالها الحزبان يتبدى للبيب أن الإحصاء الحقيقي ليس مجرد سردٍ للأرقام أو عدٍّ للأيام، بل هو مراجعة واعية لمَا انطوت عليه تلك الأيام **من تنعّم بالطاعة أو بلاء بالمعصية**. إن الحياة في ظلال الوحي والفرار بالدين —ولو كانت في وغلِ كهفٍ مظلم يظنه الرائي مقبرة للأموات— هي النعيم المقيم والخلود المورق. أما الحياة في ركاب الشيطان والشرك —ولو شُيدت لها البروج العاتية والقصور المنيفة— فهي الموت الحقيقي، والجحيم المعجل الذي يُصلي أفئدة أصحابه غماً.

إن هذه الرؤية المترفعة عن حطام الفناء تجسد وصية المصطفى ﷺ المشكاةِ للسالكين حين قال (**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**) [57].فقد جسد أصحاب الكهف هذا المعنى من خلال انشغالهم بالدعاء والرجاء خلال المدة التي قضوها في الكهف ، ثم انطوى الزمان وإذ بهم لما أُوقظوا من رقدتهم وسُئلوا :"كَمْ لَبِثْتُمْ"، تلاشت في وجدانهم السنين و(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)؛ وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن الله تعالى حين يبتلي أولياءه الصادقين، يفرغ عليهم صبراً وثباتاً، ويخفف عنهم وطأة العناء، فتمر عليهم الدهور المتطاولة كأنها طيف خيالٍ عابر.

وفي المقابل، نجد الحزب الآخر من أهل الغفلة والكفران، الذين استهلكوا أعمارهم في لهو الحياة العاجلة ولعبها، يداهمهم الذهول ذاته والمفاجأة الكبرى يوم القيامة، فيستصغرون كل تلك السنين التي تمتعوا فيها بالدنيا، ويوقنون أنها لم تكن إلا سراباً بقيعة، كما وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله :(**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**).

---

[55]) أضواء البيان ج3 ص 210
[56]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 936
57) رواه البخاري ج20 ص 39 رقم 5937

وهذا ما يؤكده الإمام قتادة رضي الله عنه في تفسير الآية قاطبة بقوله :" ما كان لواحد من الفريقين علم، لا لكفارهم ولا لمؤمنهم"[58].**فكأن الزمان قد طُوِيَ عن الفريقين معاً** لعجز البشر؛ فالكفار الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا استقصروا زمانهم ولم يشعروا بامتلاء ترفهم، والمؤمنون الذين تقلبوا في لأواء الابتلاء ومكابدة الصبر سُرِقَ الوقت منهم بلطف الله، لينقاد الجميع في النهاية —مؤمنهم وكافرهم— مستوين في العجز أمام قيومية الزمان، منقلبين إلى متاع الآخرة والحساب العدل.

قوله (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) (13) قص الله على نبيه نبأ أصحاب الكهف ليس لمجرد التسلية ، بل هو من قبيل **التعريف بأهل الحق** ، ليكونوا مناراً يُهتدى بهم ، بفهم أحوالهم ، وبيان الطريق الذي سلكوه ، والصعوبات التي اعترضتهم ، ومدى تسليمهم لله ، وقوة إيمانهم به . إنها حكايةٌ تلخص حجم العقبات التي اعترضت سبيلهم، وتجلو مظهر استسلامهم المطلق لربهم، وعمقَ يقينهم به.

وتبرهن الآيات كيف أن الله جل جلاله لا يتخلى عن أوليائه؛ بل كانوا في معية الله يكتنفهم بعين رعايته، ويمدهم بمدده، ويحوطهم بسياج حفظه، حتّى زادهم هدىً فوق هداهم.

كما كشفت الآية عن ملحظ دقيق ، وهو أن ثمة توقيت رباني لكل شيء ، أُذن لهم فيه بتبليغ دعوتهم؛ إذ بعثهم الله بعد أن تلاشت عروش قومهم الظالمين وطواهم الردى، ليخلفهم جيلٌ آخر أخذ به البهاء، فانبهر بآيتهم، وما معهم من رقيم من آيات الإنجيل ، واعتنق دعوتهم.

إن في التعبير القرآني اللطيف ووصفهم بأنهم" فتية " لَإشارةٌ باهرة تخطف الأنظار صوبَ أهمية هذه المرحلة العمرية، وحجمِ أثرها في بناء أمجاد الأمة المسلمة عبر تقلب الأزمنة والأمكنة. ويؤكد هذا المعنى المأثورُ عن ابن عباس رضي الله عنهما حين قال:**"ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب، ولا أُوتي العلمَ عالمٌ إلا وهو شاب"**، مستشهداً بآي التنزيل: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾، وصولاً إلى أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[59].

لقد تسنم هؤلاء الشباب ذروة المجد فكانوا في طليعة ركب الدعوة، وحين أحدقت الفتن بأرضهم واشتد الكرب، صوب أهل الشر سهامهم نحوهم طمعاً في ردهم عن دينهم. بيد أن هؤلاء الفتية لم يرتضوا الدعة،و لم يؤثروا الراحة، ولم ينساقوا وراء العبث والمرح، بل استشعروا ثقل الأمانة، فاغتنموا ربيع عمرهم للذود عن الدين . فصهروا قواهم ونضارة صحتهم في بوتقة الطاعة، واستثمروا أوقات فراغهم في البلاغ والدعوة، وبذلوا نفائس أموالهم في سبيل الله.

وهذا الصنيع هو عين الامتثال للوصية النبوية الخالدة التي رواها ابن عباس رضي الله عنهما، حين قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه :**(اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)** [60].

---

[58]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 190
[59]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 190
[60]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 341 رقم 7846 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 168 رقم 3355

إن نجاح الأفكار ونهضة الأمم تبنى بأربعة أركان :الإيمان القوي بها ، والإخلاص في سبيلها ، والحماسة لها ، والعمل لأجل تحقيقها ، فالفكرة الحقّ كالشجرةٌ المباركة، لا تُؤتي أكلها ولا يمتد ظلها إلا إذا سقاها إيمانٌ راسخ في القلوب الذكية، وغذّاها إخلاصٌ طاهر في الأفئدة النقية، وضخّ فيها الدفءَ حماسةٌ تشتعل في الشعور القوي، وشدّ أزرها عزمٌ فتيّ يدفع نحو العمل والتضحية. ولذلك قيل أن (أساس الايمان القلب الذكى وأساس الاخلاص الفؤاد النقى وأساس الحماسة الشعور القوى وأساس العمل العزم الفتي وهذه كلها لاتكون إلا للشباب) ؛ فَبِهِم تُحْمَل الرايات، وتُبنى الصروح، وتُبعث الأمم من رقدتها، قديماً وحديثاً، مصداقاً لقوله تعال (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) [61].

وأهل السنة يضعون هذه المصطلحات في إطارها التعبدي والتوحيدي ، كما يلي :-

فالإيمان : يرى أهل السنة أن نجاح الأمم يبدأ من الإيمان بالله أولاً وتوحيده، ثم الإيمان بـ "عدالة القضية" أو الفكرة. فالإيمان عندهم هو (قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان)

والإخلاص هو أصل قبول الأعمال عند الله. وفي المنهج السني، لا يكون الإخلاص للفكرة مجرد تجرد نفسي، بل هو إخلاص الدين لله وحده (ابتغاء وجه الله)، وهو شرط أساسي للتمكين والنهضة

وبالحماس تُترجم شرعياً بـ" العزيمة الصادقة "أو "علو الهمة". وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من العجز والكسل، ويحث على النشاط والحمية في الحق دون غلو أو اندفاع غير منضبط

والعمل هو الركن الركين في فقه أهل السنة، فالإيمان لا يكفي وحده بل لا بد من العمل الصالح والأخذ بالأسباب . فالأمة الإسلامية لم تنهض إلا بالعمل والكسب وبناء الأرض

وقوله (..وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) (13) يضمّ في طياته دلالةً عميقة على مراتب الهداية؛ فهي تبدأ أولاً بطلب أصل الاهتداء، ثم تتوق نحو الزيادة فيه والاستزادة منه. وهذا برهانٌ جليّ على أن الإيمان يزيد وينقص، فإن لم يكن المرء في زيادة من إيمانه، فهو ولا شك في نقصان.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم (هذا نصٌّ صحيح صريح لا يحتمل التأويل في أن نفس الإيمان القائم بالقلب يقبل الزيادة والنقصان، وبعضهم أرجح من بعض»[62]. ويُعضد هذا الفهم قول الإمام الشافعي :(ولو كان هذا الإيمان كله واحداً لا نقصان فيه ولا زيادة؛ لم يكن لأحد فيه فضل، واستوى الناس وبطل التفضيل. ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله في الجنة، وبالنقصان من الإيمان دخل المفرّطون النار[63].

وقد تجلّت تلك "الزيادة في الهدى" في صنيع فتية الكهف؛ إذ التمسوا الكهف طريقاً لترسيخ هدايتهم، واعتزلوا بهرجة الدنيا التي فُتن بها قومهم، فارّين بدينهم من غوائل الفتن. ولا يعني هذا بحالٍ أن مواجهة العدو بالطرق السلمية

---

[61]) https://www.youtube.com/watch?v=CIqKBMwpfBA
(تنبيه وفق معيار أهل السنة والجماعة: إن هذه الأركان والمقاصد لا تصلح ولا تكون مباركةً نافعةً في الموازين الشرعية إلا إذا صُرفت في طاعة الله، وتحت مظلة العقيدة الصحيحة، واتباع هدي النبي ﷺ وأصحابه، مُجَرَّدةً عن الحزبية المقيتة أو الغلو، ومبنيةً على نصرة الحق والتمسك بالكتاب والسنة بفهم السلف الصالح)

[62]) حاشية ابن القيم ج12ص 292

63) الدكتور محمد بن عبدالرحمن الخميس :اعتقاد الأئمة الأربعة ج1 ص 22

والصبر على أذاه ليس من الهدى، بل هو الهدى في أسمى صوره ، يقول النبي ﷺ (المؤمن : الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)[64].

غير أن ما أقدم عليه أصحاب الكهف كان زيادةً في الهدى، والمسلك الأرشد في زمن الفتنة لعجزهم عن المواجهة. وقد أبانوا عن علة عزلتهم وشدة ضعفهم بقولهم :﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

لذا، فإن مسلك الفتية كان نابعاً من فقهٍ عميق بالدين؛ إذ ليس من الحكمة والوعي أن يلقي المؤمن بنفسه إلى التهلكة بمواجهةٍ غير متكافئة لا يملك لها من أسباب التمكين شيئاً. فالنكوص عن المواجهة وتأجيلها في أوقات الاستضعاف أصلح لبيضة الدعوة وأسلم لِخَلَفِها.

كما يوضح سيد قطب الأبعاد العميقة والظروف المحيطة بقرار الفتية، مبيناً أنه لم يكن أمامهم من خيار سوى الهجرة؛ فحين تتمايز السبل وتتناقض المناهج، ينعدم أي سبيل للالتقاء أو العيش المشترك. ولم يكن هؤلاء الفتية رسلاً مكلّفين بالمواجهة والبلاغ ليصبروا على الأذى، بل كانوا عصبة مؤمنة تبدّد أمامها الضلال في بيئة جائرة، فباتت حياتهم مهددة إن هم جاهروا بالحق، في وقتٍ لم تطق فيه نفوسهم المداهنة أو عبادة غير الله على سبيل التقية، لا سيما وأن أمرهم قد كُشف ولم يعد أمامهم إلا الفرار بدينهم.

وفي هذا السياق يشرق هدي النبي ﷺ بقوله « إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ **السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ**، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، **وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا**» [65] أي الذي يتجنب المواجهة هو السعيد بدينه ، فإذا قدر على ذلك مرة أو مرتين أو ثلاث فإنه لابد وأن يبتلى فإذا حصل ذلك وصبر فطوبى له.

والمراد بـ (مَن ابتُلي فصبر): أي مَن امتُحن بتلك الفتن فحبس نفسه على الأذى، ولم يسعَ إلى المحاربة والمواجهة في زمن الضعف. ولفظة "فَوَاهًا" (بالتنوين) هي اسم صوتٍ أُقيم مقام المصدر وناب عن فعله كما ذكر الطيبي. وقال ابن الملك في بيان معناها: «تأتي بمعنى التلهف، وقد تُوضع موضع الإعجاب بالشيء واستطابته؛ أي: ما أحسن وما أطيب صبر مَن صبر! وقيل معناه: فطوبى له[66].

وهكذا، (آثر الفتية خشونة الكهف وضيق عزلته على زيف الدنيا وزينتها، فغدا ذلك الضيق في ظلال الإيمان فضاءً رحيباً؛ إذ استروحوا رحمة الله واستشعروها وارفة ممتدة. وتتجلى روعة التعبير القرآني في لفظة "ينشر" التي تضفي على المشهد ظلال السعة والبحبوحة، لتتحول جدران الكهف الصخرية إلى أفق فسيح تنتشر في أرجائه الرحمة الإلهية وتتسع خيوطها لتغمر قلوبهم بالطمأنينة) [67].

قوله (..وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ..) (14) استعارة مكنية باهرة؛ فالقلب عند الخوف والقلق يضطرب ويفزع حتى كأنه يوشك أن يغادر مكانه، كما صوّر القرآن حال الفزع الأكبر بقوله **(وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)** .وفي مقابل هذا

---

[64]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 140 رقم 388 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 162
[65]) رواه أبو داود ج11 ص 332 رقم 3719 وصححه اللباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج9 ص 263 رقم 4263
[66]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 378
[67]) في ظلال القرآن للسيد قطب 2262/4، مع تصرف الشيخ القحطاني : الولاء والبراء ج1 ص 127

الانزعاج، يأتي المدَد الإلهي بـ "الربط"، وهو في أصل اللغة الشدّ والإحكام، فيُشَبَّه القلب المطمئن بالشيء المستقر المثبت في مكانه، دلالةً على رباطة الجأش وسكون النفس.

وقد عُدِّيَ الفعل بحرف الجر (على) ليفيد معنى **الاستعلاء والإحاطة**، كأنَّ الرعاية الإلهية تحوط القلب من فوقه لتمنعه من الاضطراب والزيغ.

إن هذا الربط الرباني هو ذروة التثبيت عند المحن والخطوب؛ لا سيما في تلك المواقف العصيبة التي تزول منها الجبال، وتزيغ فيها الأبصار، وتتزلزل الأرض من تحت الأقدام، كالمشهد المهيب الذي عاشه الصحابة يوم الأحزاب حين **أُحيط بهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً.**

وفي ظلال هذا المدد الغيبي، يفيض الله على عباده بقوة إيمانية دافقة ، كما يعبر ابن عجيبة أي (**قوّينا عزائمهم**، فيقتحمون بها مضايق الصبر الشاقة، ويهون عليهم هجر الأوطان، ومفارقة الأهل والخلان، ويهجرون النعيم والدَّعة، ليقفوا في وجه الباطل قاماتٍ شامخة، يصدعون بالحق في شجاعةٍ بالغة، لا يداخلهم خوفٌ، ولا يثنيهم حذر) [68].

قوله (..إِذْ قَامُوا فَقَالُوا..) (14) يتجلى مظهر الانتصاب لإعلاء منار الدين وإظهار شعاره، وهو الملمح المشهود في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 19]. إن في جرس اللفظ وحروفه وثبةً توحي **بالحركية الدائبة في تبليغ رسالة الله**، وتشي بالصدع بكلمة الحق في وجوه الجبابرة بلا وجل[69]. وفي هذا السياق، يقرر الشيخ إسماعيل المقدم: "أن **من أخص خصائص الداعية حركته** التي تباين الخمول والجمود؛ فالحركة ولود والسكون عقيم، والحركة نبض الحياة والسكون نذير الممات"[70]. وفلسفة هذه الرؤية الإيمانية تقوم علي أن "**الحركة مبتدأ، والسكون منتهى**؛ إذ لا تسكن الأشياء إلا إذا بلغت نهايتها فخمدت وماتت، أما الحركة فمستقبلٌ يلد ما بعده".

إن هذه الحركة هي الحد الفاصل بين عهد المراقبة والانتظار، وعهد النهوض بالأمانة بعزم حازم ووفاء صادق. فبفضلها انطلق الرعيل الأول كأشعة الشمس الساطعة في آفاق الأرض، يفتحون الممالك، ويستنقذون القلوب، ويهدمون عروش الطواغيت؛ ليقودوا البشرية إلى رحاب الجنان. لقد غدوا بحركتهم سُرُجاً وهاجة تُبَدِد ظلمات الوجود، فإذا بالباطل ينقلب رماداً تذروه الرياح بعد تأججه، ويغدو هامداً بعد صولته[71].

قوله: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [14]، يعكس إقراراً خالصاً بربوبية الله جل وعلا، وامتلاءً بمشاعر الفخر والاعتزاز بهذا الانتماء، وابتهاجاً ببروق الإيمان؛ وما ذلك إلا فيض من سكينتهم، وأثر من آثار الربط على قلوبهم. وفي لطائف الإشارات، يقول القشيري: "قاموا لله بالله، ومن قام بالله غاب عما سوى الله". وقيل في حكمة

---

[68]) البحر المديد ج3 ص 382

[69]) يقول الشنقيطي : وأكثر المفسرين على أن قوله: {إِذْ قَامُواْ} أي بين يدي ملك بلادهم، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان، يزعمون أن اسمه: دقيانوس.

70) الشيخ محمد إسماعيل المقدم : علو الهمة ص 8

71) أبو الحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" للندوي"

السير: "من قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله"[72]. وملاك الأمر كله أنهم "قعدت بهم الشهوات، فاستقام لهم القيام بالله"[73].

قوله (..لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) (14) إقرار صارم بقصر مقام الألوهية على الحق سبحانه، وبراءة مطلقة من صنيع قومهم، ليس فيها مجال لمداراة، ولا متسع لمصانعة. لقد تعالت نفوسهم الشريفة، واشمأزت أفئدتهم الزكية عن كل قول أو فعل يشوب نقاء التوحيد، فكان الشرك في عرف إيمانهم أمرا خارجا عن حدود الاستطاعة والطاقة البشرية، يستحيل أن تنطق به شفاههم ولو سيقوا إلى المنايا.

وقد صدر منهم هذا الإقرار في عمق الظلمة الطاغية، فحين مادت الأرض بأهلها شركا وطغيانا، وقفت تلك الصفوة من الفتية كأطواد راسخة لا تزعزعها رياح الاستضعاف، أعلنوا الصدع بالحق الأبلج في نداء يملأ الآفاق طهرا وتنزيها: " لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ". إنه الصدى الذي تردد قديما على لسان الخليل إبراهيم حين صرخ في وجه الوثنية: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)، وهو ذات الميثاق الذي نادى به خاتم المرسلين . (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا).

ويستعجبون أن يطلب منهم أن يشركوا بالله ،كَيْفَ يشركون بالله وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ خُرُوجٌ عَنْ حَدِّ العَقْلِ وَمُجَاوَزَةٌ لِقَدْرِ الحَقِّ؟ (لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)؛ (والشطط مجاوزة القدر والإفراط)[74] أي لو هوت بنا النفس إلى ذلك المنحدر، لقلنا قولا باطلا مجافيا للصدق، بهيما بالكذب والبهتان، ساقطا في حمأة الإفراط والضلال.

ولقد لمح بذكاء الدكتور أيمن هاروش فقه هؤلاء الفتية فأشار إلى أنه (ولئن كان فقه الاستضعاف يبيح التلطف في المسير، فإنه لم يكن يوما جسرا يعبر عليه إلى الكفر، أو رخصة لمقاسمة المماطلين في باطلهم. فما كان للنبي ﷺ في أوج المحنة بمكة أن يقايض التوحيد بالأوثان، فنزل الفصل الحاسم: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [75]. هكذا هو الإيمان؛ يلين بنانه تلطفا ودعوة، لكن ينبو صرحه عن التنازل عن عقيدة العبودية الحقة، فتبقى راية (لا إله إلا الله) شامخة، لا تطأطئ رأسها لعاصفة، ولا تنحني لطاغوت.

قوله (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) (15) يتبدّى لنا تشخيص دقيق وبليغ قدّمه الفتيةُ؛ بوصفهم دعاةً يُعاينون واقع قومهم الغارق في دركات الشرك والضلال.

فعبارتهم الاستهلالية ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ تنضح بأسىً عميق وحرقةٍ وادعة على مصير عشيرتهم، وهو أسفٌ يشبه ذلك الذي اعتصر قلب النبي ﷺ حين قال له ربه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. أما استنكارهم بـ ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ﴾ فهو تحضيضٌ سِياقه التعجيز؛ إذ يطالبونهم ببرهانٍ قاطع وحجةٍ دامغة تُسوّغ هذا الشرك، ولسان حالهم يتساءل: أين مستندكم العلمي؟ وأين أدلتكم البينة على هذا الافتراء؟ وكما يرى ابن عاشور:

---

[72]) كتب الرقائق والتفسير الإشاري للقشيري
[73]) تفسير القشيري ج4 ص 336
[74]) تفسير البغوي ج5 ص 156
[75]) د أيمن هاروش : أستاذ مساعد في أصول الفقه : منهج التلطف : نداء بوست /https://nedaa-post.com

(ولما كان الإتيان بسلطان على ثبوت الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذراً بقرينة أنهم أنكروه عليهم؛ انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط) [76].

والغاية من هذا المحاججة بتفكيك الدَّعاوى الواهية وغربلتها؛ ليتضح للملأ بطلان الشرك، وذلك عبر مسلك "السَّبر والتقسيم" لواقع المشركين. وبهذا يتمايز المعاند المفترى الكذّاب، عن الجاهل الملتبس عليه الأمر لشبهةٍ أحاطت به. ولذا جاء التعقيب الحاسم بـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ للإشارة إلى صنفٍ خطير يتعين الحذر منه والفرار من فتنته؛ كونه يمثل رأس الحربة في محاربة الحق والصد عن سبيل الله.

إن هذا الموقف الرائد يبرهن على أن هؤلاء الفتية لم يهربوا ابتداءً من معركة الكلمة، بل جابهوا باطل قومهم، وأنكروا عليهم المنكر بألسنتهم وقلوبهم. ولما استنفدوا وسعهم، ولم تبقَ لهم طاقة بالمواجهة المادية، لم يجدوا بُدّاً من اعتزالهم؛ حمايةً لعقيدتهم وحفظاً للدين في نفوسهم. فالإنسان المؤمن هو الحامل الحقيقي لرسالة الله في الأرض، وبقاؤه مقوم أساسي لبقاء هذا الدين؛ إذ كيف يُعبد الله في الأرض إذا فني أهل الحق وحُماته؟!

وفي قوله (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ..)(16) تتجلى فيه ظلال التوجيه القرآني بالاعتزال ، ويحمل لفتةٌ عميقة إلى فضيلة الهجرة بالدين عند فساد الزمان. وتجد هذه الدلالة مجلاها في السنة النبوية المطهرة؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ : «أيُّ الناس أفضل يا رسول الله؟»، فأجابه: «مؤمنٌ يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»، قال: ثم من؟ قال: «ثم **رجلٌ معتزل في شِعب من الشعاب يعبد ربه، ويدع الناس من شره**» [77].

وقد تعاضد هذا المعنى قوله ﷺ (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ أَفْضَلُ النَّاسِ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ **كُلَّمَا سَمِعَ بِهَيْعَةٍ اسْتَوَى عَلَى مَتْنِهِ ثُمَّ طَلَبَ الْمَوْتَ مَظَانَّهُ ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ هَذِهِ الشِّعَابِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَدَعُ النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ**)[78].

وقد أثارت هذه النصوص مسألة فقهية وسلوكية جليلة؛ حيث يرى الإمام النووي أن في الحديث دليلاً لمن فضّل العزلة والبعد عن الخلق على مخالطتهم، وهو موضع خلافٍ شهير بين أهل العلم. فمذهب الإمام الشافعي وجمهور العلماء يرى أن **مخالطة الناس والاندماج في المجتمع أفضل وأولى، شريطةَ ألا يخشى المرء على دينه الفتن**، وأن يرجو السلامة في دينه ودنياه[79].

وعليه، فقد وجّه الجمهور الأحاديث المادحة للاعتزال وحملوها على **أوقات الفتن، واشتعال الحروب، أو في حقّ من يخشى ألا يسلم الناس من شره، أو من لا يملك صبراً على جفاء الخلق وأذاهم**. قال الزرقاني قال الجمهور (محل ذلك عند وقوع الفتن)[80]

---

[76]) التحرير والتنوير ج15 ص 31
[77]) رواه مسلم ج9 ص 475 رقم 3502
[78]) رواه أحمد ج15 ص 450 رقم 9723
[79]) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح ج6 ص 749
[80]) محمد بن يوسف : شرح الزرقاني ج3 ص 11

ويؤيد هذا التوجيه الفقهي الدقيق قول الرسول ﷺ : «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[81]؛ ليتضح من جماع هذه الأدلة أن الأصل هو الصبر والمخالطة والإصلاح، وأن العزلة دواء استثنائي يُلجأ إليه عند اضطراب الأحوال وفساد الزمان.

قوله (...فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا) (16) تجلّت غايتان عظيمتان سعى إليهما أصحاب الكهف في مأواهم؛ أولاهما: رجاء الرحمة الإلهية، وثانيتهما: طلب المرفق والتيسير.

فأما غايتهم الأولى، فقد تطلعوا إلى رحمةٍ واسعةٍ ينشرها الله عليهم، ونشرُ الرحمة إنما يكون بالذكر والتلاوة والصلاة، وهو دليلٌ على سعتها وفيضها الممتد. ويشهد لهذا المعنى قول النبي ﷺ في الحديث القدسي عن أهل الذكر: «(هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»، وقوله ﷺ : «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ **وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ** وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ...) [82].

وأما غايتهم الثانية، فهي سؤال الله "المرفق"، والمقصود به كل ما يرتفقون به وينتفعون منه لتيسير عيشهم؛ كالطعام، والشراب، والغطاء، والنار[83]. وفي هذا يقول الإمام الشوكاني: (المرفَق بفتح الميم وكسرها لغتان قرىء بهما، مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع، والمراد هنا: ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله) [84].

لقد تضرع فتية الكهف إلى ربهم ليدبر لهم معاشهم، ويسوق إليهم قوتهم ولباسهم وهم في عزلتهم، مدفوعين بيقينٍ ناصع، وثقةٍ مطلقة بفضل الله وحوله وقوته، ومتوكلين عليه حق التوكل؛ مصداقاً لقول النبي ﷺ: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ **لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ** تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) [85].

---

[81]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 140 رقم 388 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1ص162 رقم 388/300

[82]) رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867

[83]) في هذا المعنى التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي : 1 /938 ، أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 2157 قاله السدي ،انظر الدر المنثور للسيوطي وتفسير ابن أبي حاتم

[84]) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 373

[85]) رواه أحمد ج1 ص 204 رقم 200 السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 309 رقم 310

الفصل الثاني من قصة أهل الكهف

لطف الله بأهل الكهف

قال تعالى (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ **تَزَاوَرُ** عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ **تَقْرِضُهُمْ** ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي **فَجْوَةٍ** مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ **أَيْقَاظًا** وَهُمْ رُقُودٌ **وَنُقَلِّبُهُمْ** ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ **وَكَلْبُهُمْ** بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ **اطَّلَعْتَ** عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) وَكَذَلِكَ **بَعَثْنَاهُمْ** لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا **لَبِثْتُمْ** فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى **طَعَامًا** فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ **وَلْيَتَلَطَّفْ** وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ **يَظْهَرُوا** عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

قوله (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) فأول شيء من تهيئة المرفق هو **توقيت دخول الشمس** إلى كهفهم ، قال ابن جزي (ومعنى الآية أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ، ولا عند غروبها لئلا يحترقوا بحرها)[86] . فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:" تَزَاوَرُ " قَالَ: تميل، قال الشنقيطي (**كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها** حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في ذلك المكان)[87] . قال أبو حيان (تزاور) بإدغام (تتزاور) ، والمعنى (تزوغ وتميل)[88].

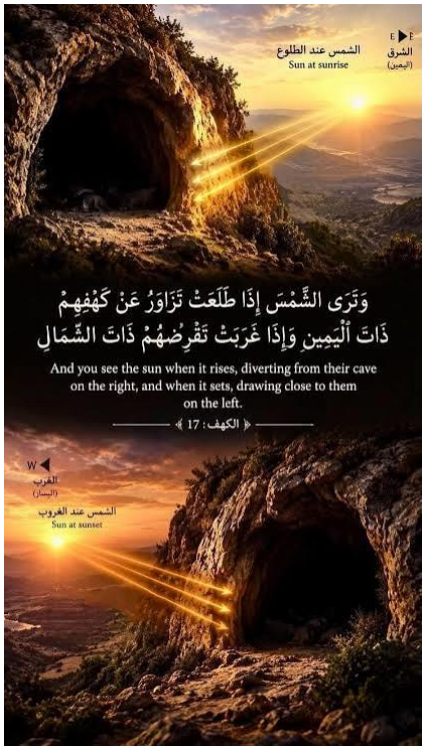
تتجلى بلاغة اللفظ القرآني في قوله تعالى: "تَقْرِضُهُمْ"، والتي فسرها المفسرون بمعنى "تذرهم"[89]؛ حيث يشير الإمام السيوطي إلى أن معناه يتجاوز مجرد الترك إلى العبور بسلام، فلا تصيبهم بأذى قط[90].

وإذا تتبعنا السر اللغوي للكلمة، نجد أن أصل القرض في اللغة هو القطع، مأخوذٌ من "قُراضة الذهب" وهي ما يُقتطع منه ويفصل. ومن هذا المنطلق البديع، نرى كيف تصنع الشمس لوحة رفيقة بأصحاب الكهف: حيث تحنو عليهم بشعاعها من خلال العبور الآمن ، فالشمس عند غروبها تميل عنهم برفق، وتتجاوز مخبأهم لتتركهم وادعين في ظلال السكينة، دون أن تفاجئهم بلفح شعاعها المباشر أو تؤذيهم بحرارتها.

وقيل في أسرار هذا العبور الرفيق ، أن الشمس لا تحرمهم كلياً، بل تمنحهم نفحةً يسيرة من ضيائها؛ ليحمل شعاع العشيّ إلى أجسادهم وهائهم نسيم الإصلاح والتجدد، فيصونهم من البِلى، دون أن يمسّهم بلفحةِ حرقٍ أو هجير.

---

[86]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 939
[87]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ث 219
[88]) تفسير البحر المحيط ج7 ص 427
[89]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 191
[90]) تفسير الجلالين ج5 ص 168







قال ابن كثير (هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال) هذا ما استنتجه ابن كثير من من خلال تحليل حركة الشمس وظلها ومسارها اليومي كما وصفتها الآيات ، وذلك من خلال تأمله لحركة الشمس عند الشروق والغروب :-

فبالنظر إلى حركة الشمس عند الشروق :يتبين أن الشمس عندما تطلع تبتعد وتميل عن فم الغار جهة اليمين كما في قوله (تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ)، ما يعني أن الظل يتقلص تدريجياً جهة اليمين كلما ارتفعت الشمس في السماء، حتى يختفي تماماً عند وقت الظهر (الزوال). كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة

وبالنظر إلى حركة الشمس عند الغروب :أي عندما تميل الشمس بعد الزوال نحو الغروب، يدخل شعاعها إلى الغار من جهة الشمال كما في قوله (تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ)، وهو الجانب الشرقي بالنسبة لداخل الكهف.

من هنا أثبت ابن كثير فرضية أن باب الكهف من ناحية الشمال فقال (وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب)[91] ، أي أنه تراءى له أن فرضيته تتوافق تماماً مع علم الفلك والجغرافيا وسير الأجرام السماوية ، وأكد هذه النظرية كذلك باستبعاد الاتجاهات الأخرى ، (الشرق ، الجنوب ، الغرب)

إذ لو كان الباب من ناحية **الشرق** لما دخله شعاع للشمس وقت الغروب.

ولو كان الباب من جهة **الغرب** :لما دخلته الشمس وقت الطلوع أي صباحاً عند الشروق، بل لدخلته بعد الظهر واستمرت فيه حتى الغروب.

لو كان الباب **جنوبياً** (جهة القبلة) : لما دخلته الشمس مطلقاً ، لا عند الشروق ولا عند الغروب، ولما مال الظل يميناً ولا شمالاً.

---

[91]) تفسير ابن كثير ج5 ص 143

مما يدل على **العناية الإلهية بأصحاب الكهف** أن جعل بابه موجهاً نحو الشمال بدقة؛ لضمان دخول ضوء الشمس ليتجدد الهواء بشكل متوازن ولطيف دون أن تصيبهم أشعة الشمس المباشرة المباشرة طوال النهار، مما يحافظ على سلامة أجسادهم طوال فترة نومهم الطويلة.

وهذا التحديد الجغرافي لموقع أهل الكهف حدا باللجنة الملكية لإعمار مقامات الأنبياء والصحابة وإدارتها إلى الإعلان عن اكتشاف مكان أهل الكهف جغرافيا في موقع (الرقيم) بالمملكة الأردنية الهاشمية [92]

قوله (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) (17) أي (متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها) [93]، فثاني شيء من تهيئة المرفق بعد **توقيت دخول الشمس** إلى كهفهم ، هو التهوية الجيدة ، ولذلك قال تعالى (وهم في فجوة منه) ، بحيث يدخل الهواء ويخرج دون أن يختنق في الوسط .



علاقة المبنى بالرياح وخلق منطقة ضغط مرتفع ومنطقة ضغط منخفض[94]

قوله (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) قال ابن عاشور (وآيات الله: دلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيدي دين الحق) ، ذلك أن الله تعالى أخرجهم من زمان الاستضعاف إلى زمان آخر بعد أن تغير القوم وتبدلت الأحوال واهتدى بعضهم للإيمان ، بدليل قول بعضهم لما عثروا عليهم فيما بعد وقد ماتوا (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ)

---

92) https://www.almaqamat.com/shrines/religious-sites-1

93) أيسر التفاسير للجزائري وكذلك الطبري في تفسيره ج17 ص 623 نقلا عن قتادة وغيره

94) عندما تهب الرياح نحو المبنى الهواء المتجمع فوق الجانب المواجه للريح يخلق منطقة ذات ضغط مرتفع والهواء الآتى حول المبنى يخلق منطقة ذات ضغط منخفض للمبنى مباشرة باتجاه الريح ، بناء عليه اختلاف الضغط الموجود بين الجانب الذى تهب منه الريح والجانب الذى تهب نحوه الريح في مثل هذه الطريقة الهواء سيتحرك خلال المبنى إذا كان الفتحات الموجودة من جانب الضغط العالى (منطقة الضغط العالى) إلى جانب الضغط المنخفض (منطقة المص)



فمن طوى الزمان لأصحاب الكهف، قادرٌ على أن يقلب موازينه لمن يشاء، ويبدل من حالٍ إلى حال.

قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ..) (17) وفي هذه الآية لفتةٌ باهرة تبرهن على أن الهداية مَحضُ فضلٍ إلهي؛ إذ انتشل الله فِتية الكهف من غيابات الضلال ومجتمعات الطغيان والشرك، وعصم قلوبهم رغم غَضارة سِنّهم وقوة عاتية قومهم، ليكونوا للناس آيةً تُسفر عن عاقبة الإيمان الصادق. فلما استعصى على أولئك الفتية رَدْعُ قومهم وكَفُّ طغيانهم، **ألهمهم الباري سبحانه فكرة الاعتزال والفرار بالدين**، وفي هذا السياق يقرر الحافظ ابن كثير قائلًا: «هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له) [95].

ومن مَعين هذا المعنى، يفيض شيخ الإسلام ابن تيمية ببيان فقر العبد الدائم إلى الهدى، مؤكدًا أن «**كل عبد مفتقر دائما إلى حصول الهداية**»، وهي هدايةٌ لا تقف عند حدود الإقرار المجمل—بأن يشهد العبدُ أن القرآن حقّ، والإسلام حقّ، والرسول حقّ—بل إن هذا الهدى العام لا يغني المرء فتيلاً إن لم تشمله هدايةٌ تفصيلية تنبثق في قلبه مع كل نَفَسٍ ولمحة. وعلّة ذلك أن الإنسان خُلق في أصله «ظلومًا جهولًا» ، (فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر **فيحتاج دائما إلى علم مفصل** يزول به جهله وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه .. فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم)[96].

وصفوة القول التي يرمي إليها ابن تيمية: أن **مراتب الهداية مدارجُ لا تتناهى، تنعكس في كل جزيئةٍ من حركات العبد وسكناته لتوافق مراد الحق سبحانه**. وهذا ما يَعبر عنه علماء العقيدة بـ" دوام التوفيق"؛ فالهداية العامة التي هي معرفة الحق وتُسمى "هداية الإرشاد"، لا تجزئ العبد ولا تنقذه إلا إذا واكبتها وعضدتها "هداية التوفيق" الجارية في سائر الأحوال والمقامات، تصديقًا لقوله جل شأنه :(**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) .ومن هنا كان الافتقار إلى الزيادة من الهدى شأنَ العبد الملازم له في كل آن.

---

[95]) تفسير ابن كثير ج5 ص 143
[96]) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج22 ص 401

قوله (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)(17) ليس معناه نفي هداية الإرشاد العام فهي حاصلة لكل أحد ، بل المقصود هو ضلالهم عن دلالة التوفيق ، لأنهم ضلوا عن إرشاد الله لهم ، فلم ينتفعوا بها ، إذ لا تجزئ هداية الإرشاد في النجاة ، بل لابد وأن تدفع هداية الإرشاد العبد –إذا انتفع بها– لهداية التوفيق ، قال القيرواني (والهدايةُ هدايتان: –

- **هدايةُ الدَّلالة والإرشاد**، وهذه حاصلةٌ لكلِّ أحد، ومن أدلَّتها قول الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، أي: أنَّك تدعو كلَّ أحد إلى الصراط المستقيم
- **وهداية التوفيق**، وهي حاصلةٌ لِمَن شاء اللهُ هدايتَه ، ومن أدلَّتها قول الله عزَّ وجلَّ (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

وقد جمع الله بين **الهدايتَين** في قوله: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، فقوله: "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ" أي: كلَّ أحد، **فحُذف المفعول لإرادة العموم**، وهذه هي هداية الدلالة والإرشاد، وقوله: " وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " **أظهرَ المفعولَ لإفادة الخصوص**، وهي هداية التوفيق)[97].

قوله (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) (18) هذا هو الأمر الثالث في شأن تهيئة المرفق ، ويقصد به (الحراسة) ، وأول شيء في الحراسة أن يظل أهل البيت متيقظين ، فلا يتلصص عليهم أحد حتى يتأكد من غفلتهم أو خروجهم ، وآخر مراتب الحراسة الإرهاب والإرعاب ، بحيث يرتدع كل من تسول له نفسه أن يعتدي عليهم ، فلا يملك الجراءة لفعل ذلك ، وهو ما تحقق في شأن أهل الكهف كما في قوله (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) ، ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها)[98].



قال ابن كثير (ذكر أن الذئب ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد .

ولذلك قال الشاعر : – يَنَامُ بإحْدَى مُقْلَتَيه وَيَتَّقِي ... بأخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ ...

وهذا الأمر نستشف منه فقه الحراسة ، فهي تقوم في المقام الأول على التخويف والإرعاب وليس على القوة الحقيقية والسلاح ، ولذلك فإن إدارة الدولة لمرافقها وحراستها لها لا يستلزم جيشا جرارا وإن كان يحتاج ذلك ، بل

---

97) عبد المحسن بن حَمَد العبَّاد البدر : قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة القيرواني ص 102

98) تفسير ابن كثير ج5 ص 143

يكفي أن يرى الناس تواجد الحراس في مرافق الدولة بأسلحة خفيفة ليتوهم المجرمون أنهم قادرون على استدعاء غيرهم في التو واللحظة عند الحاجة .

إذ تتبلور في نظريات الفقه السياسي الإسلامي ركيزة "الهيبة" كدعامة أولى لحفظ النظام العام، وقوة كابحة للجريمة قبل وقوعها عبر مفهوم "الردع الوقائي". وفي هذا السياق، يقرر الإمام الماوردي في "الأحكام السلطانية" أن جوهر الإمامة يقوم على "حراسة الدين وسياسة الدنيا"، مؤكداً أن استتباب الأمن لا يتأتى باستعراض الجيوش وتسييرها في الحواضر، بل بـ "ظهور القهر وبسط الهيبة"؛ حيث يغدو وجود الحارس أو الشرطي (صاحب العسس) في المرفق العام بزيّه وسلاحه الخفيف رمزاً تختزل فيه الدولة سيادتها كاملة، لا مجرد قوة فردية عابرة. ويلتقي هذا الطرح مع فلسفة ابن خلدون في "المقدمة" حول "الوازع السلطاني"، إذ يرى أن الطبيعة البشرية نزّاعة للعدوان ما لم يكبحها وازع، وهو وازع نفسي بالمقام الأول؛ فمعاينة الناس لمظاهر السلطة وتنظيم مرافقها يذكي في مخيلتهم القوة العظمى الكامنة وراءها، فيكفون عن الإفساد تهيباً من "العقوبة المتوقعة" لا "القوة المشاهدة."

وتتطابق هذه الرؤية التراثية مع فلسفة الإدارة السياسية الكلاسيكية، المعرفة بـ "سياسة الهيبة" أو "فطنة الحراسة"، والتي تقوم على أن الردع النفسي وإظهار الهيبة أشد أثراً وأوفر اقتصاداً للدولة من الاستخدام الفعلي والمستمر للقوة العسكرية؛ وهي الفلسفة التي تقاطعت مع المذهبين النفعي والواقعي تحت مسمى "الردع بالتوهم."

أما في الفكر الإداري والسياسي الحديث، فتُدار المرافق العامة وفق مبدأ "اقتصاد القوة" (Economy of Force)؛ وهو ما يفسر سيكولوجية "توهم الاستدعاء الفوري" لدى الخارجين عن القانون. إذ يولد هذا المبدأ شعوراً دائمًا لدى الأفراد بأنهم تحت عين الرقابة في أي لحظة، وأن الحارس القائم ما هو إلا طليعة لمنظومة ضخمة قادرة على التدخل الفوري، مما يدفع المجرم إلى ضبط سلوكه ذاتياً دون حاجة لحراسة عسكرية مباشرة[99].

وتتكامل هذه الرؤية مع مفهوم إدارة المرفق العام بـ "القوة الرمزية"، أو ما يُصطلح عليه في علم الإدارة الحديث بـ "الحضور الردعي(Deterrent Presence) "؛ فالغاية هنا ليست خوض المعارك، بل إبرام رسالة حازمة

---

99) انظر في هذا المعنى **كتاب "عن الحرب – (On War) "كارل فون كلاوزفيتز :(Carl von Clausewitz)** هو المرجع الأول والأهم الذي اشتق منه هذا المبدأ؛ حيث ركّز كلاوزفيتز على فكرة أن أي هدر للوقت أو تشتيت للقوات يتعارض مع الاستراتيجية السليمة، وناقش كيفية موازنة الجهد الرئيسي والثانوي] .

كتاب "فن الحرب – (The Art of War) "بارون أنطوان هنري جوميني :(Antoine-Henri Jomini) يمثل المدرسة التنظيمية والهندسية للحروب، وتناول فيه كيفية توزيع القوات استراتيجياً لضمان التفوق العددي في النقاط الحاسمة وتوفير الجهد في النقاط الأخرى

كتاب War: A Matter of Principles (سلسلة الدراسات الدفاعية RUSI): يحتوي على فصل خاص ومستفيض بعنوان *Economy of Effort* للباحث ديفيد إيفانز، يشرح فيه المفهوم ويفكك الفهم الخاطئ الذي يخلط بين "اقتصاد القوة" وبين "الشُح أو التقشف العسكري".

مقال "Mass and Economy of Force" – بول ميردوك (كلية الحرب العسكرية الأمريكية): دراسة منشورة في دورية *Parameters* تحلل بدقة العلاقة الطردية والعكسية بين مبدأ الحشد ومبدأ اقتصاد القوة في الحروب المعاصرة.

كتاب Economy of Force: Counterinsurgency and the Historical Rise of the Social – باتريشيا أوينز (مطبعة جامعة كامبريدج، 2016): يأخذ المفهوم إلى أبعاد سياسية وتاريخية أوسع، حيث يدرس استخدام مبدأ اقتصاد القوة في عمليات مكافحة التمرد (مثل مالايا، كينيا، فيتنام، وأفغانستان).

للمخربين بأن هذا المرفق متصل وثيقاً بـ "شبكة سيادية أعلى" تضم خطوط إمداد وقوات دعم سريع، مما يخلق وعياً نفسياً رادعاً يفوق بكثير حجم السلاح الخفيف المشاهد[100].

وختاماً، يجمع الشراح في باب "السياسة الجنائية" على أن الحارس في الأسواق والمرافق العامة يمثل "عين الدولة" الناظرة؛ فاللص لو استشعر غياب الدولة لقاتل الحارس منفصلاً، لكنه يلوذ بالفرار لأنه يبصر في هذا الحارس "الدولة بكامل ثقلها وهيبتها". وبناءً عليه، فإن الدولة الرشيدة هي التي تدير مرافقها بـ "الهيبة الكافية" التي تحيل السلاح الخفيف رمزاً لجيش جرار يقف وراءه، وهو ما يُعرف في فقه الحراسة الأصيل بـ "إيقاع الرعب في قلوب أهل الدعارة والفساد" من خلال التواجد المنظم والمستدام.

قوله (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) وتلك هي الرعاية الصحية التي كفلها الله لهم ، وهو العنصر الرابع من تهيئة مرفق معاشهم ، لأن تقليبهم يمنع تقرح أجسادهم ، ويحول دون أن تأكل الأرض أجسادهم ، ويساعد على تنشيط الدورة الدموية في أجسادهم .

قال الرازي (فائدة تقليبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبليهم . وأقول هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم أيضاً من غير تقليب؟)[101]،وللإجابة على سؤال الرازي يستبين لنا أن الله تعالى يؤكد لنا أنه يحفظ عباده في الدنيا بقوانين الدنيا ، المعجزة عندما تحصل تحصل بأسباب الدنيا ، مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فانشق إلى فلقتين ، وكان من الممكن أن ينشق البحر دون أن يضربه بعصاه ، ولكن مشيئة الله اقتضت أن تحصل المعجزة بأسباب الدنيا .

كذلك فإن التقليب يُظهر إكرام الله لهم بالرعاية المستمرة، ولو عُطلت كل القوانين الفيزيائية لصار الأمر كله خارجاً عن إدراك العقل البشري، بينما دمج المعجزة (النوم الطويل) مع الأسباب الطبيعية (التقليب، فجوة الكهف، مرور الشمس) يجعل القصة قابلة للتدبر والفهم.

إذن **القدرة الإلهية لا تعجز عن حفظهم بلا تقليب، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت تربية العباد على احترام "قانون الأسباب"**، وإظهار أن الله يحفظ أجساد عباده الصالحين من خلال تسخير سنن الكون لأجلهم، وليس فقط بمجرد تعطيلها.

قوله (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) تأكيد لمظهر الحراسة ، وقد كانوا يصطحبونه معهم لأجل تلك الغاية





[100]) https://www.cfr.org/education/learn/reading/what-deterrence

[101]) تفسير الرازي ج10 ص 182

فهذه هي وضعية الحراسة للكلب ، حيث يكون وجهه في مقابلة الداخل من الباب ، وبهذه الوضعية يتهيأ الداخل للكهف أن الكلب في وضع الاستعداد للقفز عليه لو اقترب منه أكثر ، فيرتعب ويرجع بهدوء حتى لا يوقظه ، قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب , وهذا سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم , وكان جلوسه خارج الباب , لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ، نقل ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : **الوصيد الفناء** , وقال ابن عباس : بالباب . وقيل : بالصعيد وهو التراب , والصحيح أنه بالفناء وهو الباب , ومنه قوله (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ) (الهمزة/8) أي مطبقة مغلقة[102] .

أما من يقتني كلبا للتفاخر أو اللعب فليس من الإسلام ، يقول النبي ﷺ (مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبًا ضَارِيًا لِصَيْدٍ أَوْ كَلْبَ مَاشِيَةٍ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ)[103] ، (يخبر النبي ﷺ أن من اقتنى كلباً لا لشيء من المقاصد الشرعية الصحيحة بأن يكون اقتناه ليصيد به الصيد أو اقتناه ليحمي له الماشية أو اقتناه ليحمي له الزرع فمن اقتناه لشيء من هذه الثلاثة نجا من الإثم ونقصان العمل ومن اقتناه لغير هذه المقاصد فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراط)[104] .

قوله (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) (18) وهذا هو دليل تحقق عنصر الأمان لهم ، فالأمان يتحقق بمجرد الحراسة والمهابة ، ودون حاجة للمقاتلة والمبارزة ، **فبالتواجد الأمني وحسب يتحقق الأمان** ، ولذلك يقول النبي ﷺ (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)[105] ، أي أن الله سبحانه جعل بينه وبين أعدائه الذين يبعدون عنه مسيرة شهر حاجز نفسي ومعنوي يحول دون أن يتجرأوا على مهاجمته .

بذلك نفهم كيف أنهم ظلوا على هذا الحال من الحراسة ولم يدخل عليهم أحد ، ولم تقترب منهم دوريات المارة التي كانت تجول في البلاد ، فلم يتجرأ أحد على أن يقتحم مكانهم إذا اطلع ونظر إليهم ، حيث يصيبه الرعب من منظرهم وحراسة كلبهم ، وذلك كله من باب "الخداع البصري" ، فهم في الحقيقة أشبه "بالأموات" ، وليس عندهم طاقة لفعل شيء ، ولكنها معية الله بعباده المؤمنين ، فهو يدخرهم للوقت الذي يستعملهم فيه ، يقول النبي ﷺ (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فَقِيلَ كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ **يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ**)[106] ، فهؤلاء الفتية استعملهم الله قبل موتهم ، في الوقت والزمان الذي أراده ، أحياهم وبعثهم ليستعملهم فيما أراد من الخير ووفقهم للعمل الصالح.

قوله (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) (19) أي بعدما استيقظوا وسألوا أنفسهم عن المدة التي استغرقوها في النوم ، فلما لم يجدوا إجابة محددة فوضوا أمرهم إلى الله ، ولم ينشغلوا بتخمين الإجابة لأن الاستطراد في البحث عن الإجابة من قبيل تحصيل العلم الذي لا ينبغي

---

[102]) تفسير ابن كثير ج5 ص 144
[103]) رواه البخاري ج17 ص 140 رقم 5059
[104]) تأسيس الأحكام ج5 ص 162
105) رواه البخاري ج2 ص 58 رقم 323
106) رواه الترمذي ج8 ص 32 رقم 2068 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 142 رقم 2142

عليه عمل ، قال رسول الله ﷺ **(إن الله عز وجل يحب معالي الأمور ويكره سفسافها)**[107]، فهذا هو منهج أهل العلم ، وهو السكوت وعدم الاستقصاء فيما لايبنى عليه عمل .

فالمسلم الحق ابن وقته، ينظر إلى غده بعين الأمل والعمل، ولا يلتفت إلى أمسه إلا بعين الاعتبار والندم؛ فالماضي بصفحاته المطوية—خيرِها وشرِّها—قد انقضى بحلوه ومرِّه، وليس من الحكمة في شيء أن يستقطع المرء من حاضرٍ يعيشه، أو مستقبلٍ يبنيه، ليقف باكيًا أو متباكيًا على أطلال ما مضى، ما لم يكن هذا الالتفات استدراكًا لخطأ، أو تقويمًا لخلل، أو تجديدًا لتوبة نصوح. أما اجترار الماضي لمجرد التباكي أو التفاخر، فهو من إهدار العمر في غير طائل، وهو مسلك يباعد بين العبد وبين معالي الأمور.

وقد تضافرت الأدلة الشرعية وتوجيهات علماء التربية، والعقيدة، والفقه على تأصيل هذا المعنى:

فقد رسم النبي ﷺ للمسلم منهجًا حازمًا في التعامل مع الوقت والقدر؛ فالمستقبل يُستقبل بالعمل المستمر، والماضي إذا مضى يُسلّم فيه للقضاء والقدر دون فتح لأبواب الحسرة التي لا تنتج عملًا.

قال رسول الله ﷺ **(احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**، وإنْ أَصَابَكَ شيءٌ، **فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَما شَاءَ فَعَلَ**، فإنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[108].

وجه الدلالة: الحديث يأمر بالتوجه نحو المستقبل بالحرص والعمل، وينهى عن التوجع على الماضي بكلمة "لو" التي تورث العجز والكسل وتفتح باب الوساوس.

ويرى علماء السلوك والتربية أن الانكفاء على الماضي عائق نفسي وتربوي كبير يمنع النفس من التطور والنضج.

يقول الإمام ابن القيم مبيّنًا حقيقة وقت الإنسان :**(وقتُ الإنسان هو عمره في الحقيقة**، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة عيشه الضنك في العذاب الأليم... فما مضى من وقته لا يمكن استدراكه) .ويقول أيضًا : **(فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها)**

ويقول الحسن البصري رحمه الله مذكرًا بقيمة اليوم والمستقبل :(يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك)، فكل لحظة تضيع في التفكير العقيم في الماضي هي اقتطاع من ذات الإنسان ومستقبله.

ويربط علماء العقيدة بين الانشغال بالماضي (على وجه التحسر) وبين **ضعف الرضا بالقضاء والقدر**، فالمؤمن يعلم أن ما مضى قد قُدّر، وأن الواجب هو العمل لما يستقبل.

يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ما يقطع دابر الالتفات للماضي مالم يكن توبة :(والتأسف على الماضي الذي لا يمكن رده من أضر الأشياء على العبد... **فالماضي لا يُستعتب فيه، وإنما يُستعتب في المستقبل)** .فالانشغال بما فات يعطل العبد عن القيام بالعبودية الحاضرة والمستقبلية.

والفقهاء ينظرون إلى **الوقت باعتباره "رأس مال" المكلف** الذي يترتب عليه ثوابه وعقابه، وإهداره في غير مصلحة معتبرة شرعًا يدخل في باب الكراهة أو التحريم ، ولذلك نهي النبي ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال [109]، حتى يدخر المسلم طاقته ووقته فيما يفيد .

---

[107]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج3 ص 210 رقم 2940 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1ص278رقم2771 السلسلة 168/4

108) صحيح مسلم

[109]) رواه البخاري ج20 ص 113 ص 5992

فالقاعدة الفقهية المأخوذة من مقاصد الشريعة تقرر أن"**المشغول لا يُشغل"**، ونفس العبد إن لم يشغلها بالحق والخطط المستقبلية شغلته بالباطل والترهات.

ويوجه الفقهاء إلى أن الاستغفار والتوبة هما المبرر الشرعي الوحيد للالتفات للماضي؛ لتطهير الصحيفة ثم الانطلاق مجددًا، أما ما زاد عن ذلك من هدير الوقت فهو مغبون صاحبه، لقوله ﷺ **(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ).**

فالفقيه هو الذي يجعل من ماضيه مدرسة لتصحيح المسار، وتجديد الاستغفار، وتعديل الخطط؛ ويجعل من مستقبله ميدانًا للبناء، والعمل، والإنتاج، فالمسلم لا يملك من عمره إلا اللحظة التي هو فيها، والغد الذي يستعد له.

فقوله (..رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) (19) ينطوي على أدب رفيع من هؤلاء الفتية **بتفويض العلم لله** ، فقد أراد الله في هذا الوقت أن يُجلي أمرهم للناس بعد رقدتهم الطويلة، ليروا المعجزة حية أمامهم، فيزدادوا إيمانًا، ويستشعروا لطف الله بهؤلاء الفتية **الذين** ظن الناس أنهم قد اندثروا، فيستيقنوا بأن الله كما حفظهم كل هذه الفترة في ظلمة الكهف، ومن قومهم الظالمين ، فإن حفظه ورعايته تشمل كل المؤمنين الحاملين للواء هذه الدعوة. وبذلك تحولت قصتهم إلى **برهان** ساطع وحجة دامغة على البعث، فرؤيتهم بهذه العملات القديمة وببعض ورقات من الإنجيل دليل على أنهم من زمن غير الزمان، وعودتهم بعد كل هذا **الوقت بمثابة آيةٍ** على قدرة الله على البعث لا مراء فيها ، ودليل ساطع على ظهور كلمة الحق ولو بعد حين .

قوله (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) (19) أول ما انشغل أصحاب الكهف بعد رقدتهم الطويلة انشغلوا بتغذية أجسادهم لأنهم بحاجة إلى طعام بعدما شعروا بالجوع ، وأحسوا بأنهم غير قادرين على العبادة واستكمال الأعمال الصالحات دون تغذية ، من هنا نفهم أن تناول الطعام عبادة إذا كان سببا لتحصيل عبادة ، ولذلك يقول النبي ﷺ **(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ** وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ..)[110]

وتلك من المعجزات الإلهية أن تبقى أجسادهم بدون طعام طيلة هذه الفترة ، فسبحان الله ، (فالعجب كل العجب أنهم لما كانوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين في مقام عندية الحق خارجين من عنديتهم ما احتاجوا إلى طعام الدنيا وقد استغنوا عن الغذاء الجسماني بما نالوا من الغذاء الروحاني كما كان حال النبي ﷺ يواصل الأيام)[111] ، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ **نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ فَقَالُوا إِنَّكَ تُوَاصِلُ قَالَ إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ)** [112]، وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا آكُلُ اللَّحْمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا **لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)**[113].

---

[110]) رواه ابن ماجة ج1 ص 87 رقم 76 :ورواه مسلم ج13 ص 142 رقم 4816
[111]) اسماعيل حقي الخلوتي : تفسير روح البيان ج5 ص 177 نقلا عن التأويلات النجمية لنجم الدين
[112]) رواه البخاري ج7 ص 69 رقم 1828
[113]) رواه مسلم ج7 ص 175 رقم 2487

لكنهم لما عادوا لطبيعتهم البشرية طلبوا الطعام واختاروا أزكاه ليقدروا على مواصلة الجهاد والفرار بخفة ، وهذا يعني أن التمول والزاد بقدر الحاجة ، فالطعام الزكي هو الذي يمد الجسم بما يحتاجه الإنسان في ساعته ، إذ تلتقي علوم الطب والتغذية مع مقاصد الشريعة الإسلامية في التأكيد على أن العبرة في الغذاء هي **الجودة والنوعية (القيمة الغذائية)** وليست الكثرة والوفرة.

إذ يرى علماء التغذية والأطباء في العصر الحديث أن "التغذية النوعية" هي أساس الصحة المستدامة والوقاية من الأمراض، ويظهر ذلك في عدة محاور:

مفهوم "**كثافة العناصر الغذائية** :(Nutrient Density) "يؤكد أطباء التغذية أن الجسم لا يحتاج إلى كميات هائلة من السعرات الحرارية الفارغة (مثل السكريات والدهون المشبعة)، بل يحتاج إلى أطعمة غنية بالفيتامينات، المعادن، الألياف، ومضادات الأكسدة التي تفي بحاجته الحيوية دون إثقال كاهل الأجهزة الحيوية.

الوقاية من أمراض العصر :يربط العلماء بين "كثرة الطعام" (الإفراط في التغذية) وبين انتشار أمراض السمنة، السكري من النوع الثاني، أمراض القلب، والالتهابات المزمنة. ويقول أطباء الفيزيولوجيا إن الهضم الزائد يستهلك طاقة الجسم ويصيبه بالخمول والتشبع بالسموم.

مقولة الحارث بن كلدة (طبيب العرب) التي تبناها الطب الحديث كقاعدة ذهبية: «المعدة بيت الداء، والحِمية رأس كل دواء». والحمية هنا لا تعني التجويع، بل حسن اختيار نوعية الطعام وضبط كميته.

وقد استفاض علماء الشريعة والتفسير في بيان معنى "الأزكى" كما يلي :-

الطيب والنقاء والبركة :يذكر الإمام القرطبي والشوكاني في تفسيريهما أن "أزكى طعاماً" تعني أطيبه، وأنقاه من الشوائب، وأكثره بركة ونفعاً للبدن، وليس أكثره كمية أو أغلاه ثمناً.

الحلال الطاهر :ركز الفقهاء على أن الزكاة في الطعام تعني طهارته ومجيئه من كسب حلال، لأن الطعام الحلال يزكو به البدن وتصلح معه النفس والعبادة.

تأصيل قاعدة "النوع لا الكم" : إذ يستدل العلماء بحديث النبي ﷺ الذي يضع أدق ميزان صحي في تاريخ البشرية: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ...» (رواه الترمذي). وعبارة" يُقمن صُلبه "تعني علمياً وفقهياً: ما يفي بحاجة الجسم الأساسية من القوة والنشاط دون زيادة تؤدي إلى التخمة والضعف.

فقد تضمنت الآية إعجازاً تشريعياً؛ فما سمّاه القرآن الكريم قبل قرون طويلة طعاماً" **أزكى** ""أي أنفع للبدن والروح، وأطهر وأبرك ، هو عينه ما يطلق عليه علماء التغذية اليوم" **الغذاء الصحي عالي القيمة** "فصحة الإنسان وصلاح بدنه مرتبطان بكيفية الغذاء ونوعه، لا بضخامته وكثرته.

قوله (..بِوَرِقِكُم..) (19) فالمقصود بالورق "النقد" ، فقد جمعوا النقود من الجميع ، وخلطوها معا ليشتروا طعاما مشتركا ، (وإن كان فيهم من يأكل أكثر ومن يأكل أقل)[114] ، ما يدل على توافر مفهوم التكافل والتضامن لديهم ويؤكد وجوب تعاضد بين المسلمين لمواجهة ظروف واحدة وإن اختلفت حاجة كل منها في الإشباع ، ولكن فهمهم للمسألة أعمق ، فكل فرد منهم يبغي مصلحة المجموع ، ولذلك يقول النبي ﷺ (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع)[115].

والنقد الذي أرسلوا به صاحبهم ليشري لهم طعاما هو ورق من عهدهم القديم ، ولا يصلح كعملة في الزمن الجديد الذي بعثوا فيه ، والورق هو عملة من فضة مصكوكة باسم الملك الظالم في زمنهم ، ولكن التعامل بها قد بطل لأن الله أهلكه ،واستبدل آخرين بقوم غابرين ، وكان ذلك سببا لانكشاف أمرهم ، ولكن الناس تغيروا ، فلما انكشف أمرهم للناس لم يكونوا ظالمين مثل الغابرين الذين اضطهدوهم .

فعن عكرمة رضي الله عنه قال : **كان أصحاب الكهف أبناء ملوك** ، رزقهم الله الإسلام فتعوذوا بدينهم واعتزلوا قومهم حتى انتهوا إلى الكهف ، فضرب الله على صماخاتهم فلبثوا دهراً طويلاً حتى **هلكت أمتهم ، وجاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلماً** ، واختلفوا في الروح والجسد فقال قائل : يبعث الروح والجسد جميعاً . وقال قائل : يبعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض فلا يكون شيئاً ، فشق على ملكهم اختلافهم فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد ، ثم دعا الله فقال : أي رب ، قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم ، فبعث الله أصحاب الكهف ، فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً فدخل السوق ، فلما نظر جعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق ، ورأى الإيمان ظاهراً بالمدينة . فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلاً يشتري منه طعاماً ، فلما نظر الرجل إلى الورق أنكرها . حسبت أنه قال : كأنها أخفاف الربيع – يعني الإبل الصغار – فقال الفتى : **أليس ملككم فلان؟ قال الرجل : بل ملكنا فلان** . فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك ، فنادى في الناس فجمعهم فقال : **إنكم اختلفتم في الروح والجسد وإن الله قد بعث لكم آية** ، فهذا رجل من قوم فلان – يعني ملكهم الذي قبله – فقال الفتى : انطلق بي إلى أصحابي . فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهى إلى الكهف ، فقال الفتى : دعوني أدخل إلى أصحابي . فلما أبصروه وأبصرهم ضرب على آذانهم ، فلما استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه ، **فإذا أجساد لا يبلى منها شيء غير** أنها لا أرواح فيها . فقال الملك : هذه آية بعثها الله لكم)[116] .

في قوله تعالى :﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾(19) توجيهٌ حكيم لفتية الكهف بالحرص التام على إخفاء أمرهم وكتمان سرهم عند النزول إلى القرية لشراء الطعام[117]؛ إذ كانوا مضطرين للتعامل مع مجتمعٍ فروا منه لشركه بالله. ومن هنا جاء الأمر بالتلطف في البيع والشراء لئلا يثيروا ريبة أهل القرية أو يغروهم بأنفسهم[118]. وفي هذا يقول الزمخشري: "**وليتكلف**

---

[114]) أحكام القرآن للكيا الهراسي ج3 ص 115
[115]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 52 رقم 112 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 52
[116]) أخرجه ابن أبي حاتم ج9 ص 189 رقم 13774 ، الدر المنثور ج6 ص 343
[117]) النكت والعيون للماوردي ج2 ص 468
[118]) في هذا المعنى التفسير المسير ج5 ص 123 عبد الله بن عبد المحسن التركي / مجمع مصحف الملك فهد

اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة"[119]، ويعضده الألوسي بقوله: "وليتكلف اللطف في المعاملة **كي لا تقع خصومة تجر إلى معرفته.**"[120]

والمقصد العميق من هذا التوجيه هو تلافي أي تصرف غير مقصود يؤدي إلى كشف أمرهم، فسمّاه الله "إشعاراً" لأن التصرف العنيف سببٌ في لفت الانتباه[121]؛ كأن يتشاجر أحدهم مع بائع يتعامل بالربا أو المحرمات فينكشف منهجه وتميزه العقدي، فينقشع سترهم ويظهر الأعداء عليهم.

إن "التلطف" خلق إنساني عظيم في أصله، وهو في ميدان الدعوة أشد طلباً، وفي أوقات الفتن والمحكّات أوجب وألزم؛ فكلما تلاطمت أمواج الفتن، كان التحلي باللطف والرفق أداة النجاة ، فالشديد حقاً هو من يملك نفسه عند الغضب.

وفي فقه التعامل مع الخلق، يذكر الإمام ابن القيم:"**ملاطفة الخَلْق، وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف**، ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة فإن ذلك ينفرهم عنه ويغريهم به ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته. فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف؛ فإن معاملة الناس بذلك: إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته، وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته، وإما عدو ومبغض فتطفئ بلطفك جمرته وتستكفي شره، ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به."[122]

وهكذا هو شأن الدعاة في أزمنة الفتن؛ واجبهم التلطف والمداراة لا التظاهر والمهاترة، وغاية مرادهم ألّا يشعر بهم المتربصون، وليس إثبات الوجود في كل محفل لمجرد نكاية الأعداء وإغاظتهم، إذ ليس ذلك من فقه الدعوة في شيء. إن مرحلة التلطف ليست مجرد مساحة رمادية بين الاستضعاف والتمكين، بل هي خلق أصيل يلازم الداعية في كل أحواله؛ قبل التمكين وحال الاستضعاف وبعده، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

إن **التلطف في مسيرة الدعوة منهج حركي قائم بذاته**، وهو الرفق في السير نحو تحقيق المشروع الإسلامي دون إثارة الخصوم أو جلب المصاعب المجانية. فالإشارة القرآنية في قصة أهل الكهف تبرز فتيةً في مقتبل العمر، نشؤوا في بيئة كفر وتحت وطأة حكم طاغية مستكبر، فاستُضعفوا وفروا بدينهم خشية الفتنة. وكان بمقدورهم –باندفاع الشباب– أن يجهروا بأمرهم ويصطدموا بالواقع ويستقبلوا الموت بصدور عارية، لكن هذا الاندفاع لا يبني أمة ولا يحمل رسالة؛ فالرسالات تحتاج البقاء والنماء والمرحلية.

وهذا التلطف هو ذاته المنهج النبوي الذي سار عليه الرسول ﷺ ؛ ففي فجر البعثة مكث ثلاث سنوات يدعو سراً قبل أن يصدع بالدعوة فوق جبل الصفا. وفي هذا يطرح الدكتور أيمن هاروش تساؤلاً بليغاً: "فلماذا لم يجهر النبي ﷺ من البداية، وهو المؤيد بالوحي في طرحه، والمنصور من الله في حربه؟ إنه التلطف". وعندما أذن الله له بالهجرة، استفرغ ﷺ كل أساليب التلطف والحيطة والسياسة الحكيمة –وهو النبي المعصوم–؛ فسلك طريقاً ساحلياً غير مألوف لقريش، واختبأ في الغار أياماً، وسار ليلاً؛ كل ذلك إعمالاً للأسباب، وتحقيقاً لمنهج اللطف حتى لا يشعر به أحد[123].

---

[119]) الكشاف ج4 ص 2
[120]) تفسير الألوسي ج11ص 188
[121]) الكشاف ج4 ص 2
[122]) مدارج السالكين ج2 ص 511
[123]) د أيمن هاروش : أستاذ مساعد في أصول الفقه : منهج التلطف : نداء بوست /https://nedaa-post.com

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 19-20] يستبين فقه التلطف ومناطات الموازنة بين عزمة الفرد وسياسة الأمة . إذ تتجلى في التدبير القرآني معالم الحيطة والاحتراز في مظان الخطر؛ إنها دعوة ربانية صريحة لالتزام اليقظة عند الحركة والتخفي؛ مخافة أن يقع المبعوث لشراء القوت في قبضة الخصوم، فينكشف أمر الجماعة وتستباح بيضتها، فيذوقوا أشد ألوان التنكيل والاضطهاد، أو يكرهوا على الارتداد عن دينهم. وفي هذا السياق يأت التوجيه النبوي الحكيم في قوله ﷺ : (**أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**) [124].

من هذا المورد الخصب، يستبين للناظر وجوب تقيّيم المخاطر التي تحيط بالدعوة، لا سيما حين يكون القرار المتخذ قراراً مصيرياً جماعياً لا فردياً. فالتقييم الانفرادي يعجز عن إدراك مصلحة المجموع؛ ولذا وجب أن يصاغ القرار المشترك بوزن ظروف الضعفاء وأقلهم جَلدًا واحتمالاً.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ لدلالةٌ واضحة على وطأة الإكراه البالغ الذي قد يعصف بالمؤمن في أزمنة الاستضعاف، حتى تضطر جارحته للنطق بكلمة الكفر بلسانه بينما النبض مطمئن بالإيمان في جنانه.

وقد فقه المفسرون هذا المعنى الدقيق؛ إذ يقول النيسابوري في قوله: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾: " لأنهم خافوا أن يجرهم ظاهر الموافقة إلى الكفر القلبي)[125].

إذ جاء نفى الفلاح على التأبيد مع أن كفر المكره لا يضر؛ فكُفرَ المكرَه مع طمأنينةِ القلبِ بالإيمانِ معفوٌّ عنه—لِمَا خامَرَ نفوسَهم من خشيةِ أن تؤولَ موافقةُ الظاهرِ، بمرورِ الأيام، إلى زوغانٍ في الباطن؛ إذ النفوسُ مَجبولةٌ على الأُلفة، والظواهرُ بريدُ السرائر.

ولقد أدركوا بعينِ البصيرةِ أنَّ إظهارَ الكفرِ مَزلقةٌ تتوارثُها الأجيالُ؛ فإذا كان الجيلُ الأوَّلُ يُبطنُ الإيمانَ ويُداري بالتقية، فإنَّ جيلًا سيعقبُه يَنشأ على روعةِ المشهدِ الجاهليّ لآبائِه، فتتَبلدُ في نفسِهِ غَيرةُ الدين. ثم يتلوه جيلٌ ثالثٌ يرى آباءَهُ قد انسلخوا من شعائر الله سِرًّا وعَلانية، فلا يَعلقُ بقلبِهِ من الإسلامِ إلا رسمُه، ولا يَبقى في وعيِهِ غيرُ اسمِه، حتى تَفضي هذه السلسلةُ من التنازلاتِ إلى جيلٍ خاوٍ، لا يَرى في الكفرِ مأثمًا، ولا يجدُ في الردةِ غَضاضة..

وهنا ينفتح باب فقهي جليل في التمييز بين "مناطات الأفراد" و"مناطات الأمة"؛ فللفرد المستضعف له أن يترخص استبقاءً لمهجته، كصنيع عمار بن ياسر –رضي الله عنه– الذي نطق بكلمة الكفر تقية وقلبه مفعم بالإيمان، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106]. كما أن له أن يستمسك بالعزيمة ولا يبالي بالحتوف.

بيد أن هذا الخيار الفردي يضيق متسعُه في حق مَن يقود الأمة ويرتهن مصير المجموع بسلوكه وقراره؛ إذ يغدو لزاماً عليه الأخذ بالرخصة والمداراة، وألا يحمل الأمة برمتها على جادة العزيمة الشاقة.ولنا في السيرة العطرة شاهدان يوضحان هذا التمايز :–

---

[124]) رواه البخاري ج10 ص 124 رقم 2744
[125]) تفسير النيسابوري ج5 ص 162

المشهد الأول: صنيع أبي بصير بالقياس إلى حكمة النبي ﷺ : فحين كان أبو بصير رجلاً فرداً، تحرك بأسلوب حرب العصابات، ونكّل بقريش حتى قال فيه المصطفى ﷺ : (وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ). كان النبي ﷺ –ولأنه يمثل الأمة وتناط به مقاديرها– قد رضي بصلح الحديبية ونزل على شروطه المجحفة في ظاهرها، فاستشف بميزان الرؤية الاستراتيجية بوادر النصر في تلك المهادنة. ولم يكن منهج أبي بصير مناقضاً للمنهج النبوي في جوهره، بل كان اختلافاً فرضته طبيعة الظرف؛ حيث تختلف خيارات الفرد القائم بنفسه عن خيارات القائد المسؤول عن كيان الأمة.

والمشهد الثاني: قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: إذ يروي ابن عباس –رضي الله عنهما– مستهلاً القصة الشائقة: "ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟"، وينقل عن أبي ذر كيف شد الرحال إلى مكة مستقصياً خبر النبوة، وكيف تلطف علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– في إيوائه والتحايل لإيصاله إلى المصطفى ﷺ خشية عين قريش، حتى إذا لقيه وأسلم، بادره النبي ﷺ بالسياسة الدعوية الحكيمة قائلاً: (يَا أَبَا ذَرٍّ، اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ) [126].لكن أبا ذر –بما جُبل عليه من حماسة الفرد وعزيمته– لم يطق كتمان الحق، فصدع بالشهادة في نوادي قريش مرتين، فجرعوه غصص الضرب والتنكيل حتى كاد يقضي لولا تدخّل العباس بن عبد المطلب بميزان المصلحة القبلية والاقتصادية. لقد غلبت عاطفة أبي ذر الجياشة ورقة قلبه طاقته على التلطف والمداراة في موطن الاستضعاف، وهي ذات السجية التي بدا أثرها لاحقاً في مواطن الولاية؛ إذ قال له النبي ﷺ مشفقاً عليه: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي؛ لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ) [127].

وفي الختام نستنتج أن حركة أبي ذر رضي الله عنه كانت تعبيراً عن "مناط الفرد" الذي تأخذه العزيمة والجهر بالحق دون موازنة للمآلات الجماعية، وهو مسلك يباين السياسة الشرعية العامة التي اختطها النبي ﷺ لدعوته وأمته في تلك الحقبة الحرجة. ومن هنا يتأكد أن قيادة الأمة وفقه الدعوة يتطلبان بصيرة نافذة تضع الرخصة في موضعها والعزيمة في نصابها، وتدرك أن حماية المجموع مقدَّمة على حماسة الفرد ، (فمن كان يقود الأمة، ويتأثر مصيرها يتأثر بفعله يجب عليه أن يترخص، ولا يأخها — برمتها – بالعزيمة ، لأن مناطات الفرد ليست كمناطات الأمة) [128].

---

[126]) رواه البخاري ج11 ص 349 رقم 3261

[127]) رواه مسلم ج9 ص 348 رقم 3405

[128]) د أيمن هاروش : أستاذ مساعد في أصول الفقه : منهج التلطف : نداء بوست /https://nedaa-post.com

الفصل الثالث من قصة أهل الكهف

الحكمة من العثور على أهل الكهف

قال تعالى (وَكَذَلِكَ **أَعْثَرْنَا** عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ **يَتَنَازَعُونَ** بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ **مَسْجِدًا** (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ **رَجْمًا** بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ **بِعِدَّتِهِمْ** مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ **فَلَا تُمَارِ** فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24) **وَلَبِثُوا** فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا **لَبِثُوا** لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)

قوله (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) يوضح الإمام القاسمي جليّة هذا التدبير الإلهي بقوله: «أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام، وأخرج ورقهم المتقادمة العهد؛ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أن وعد الله بالبعث حق»[129]؛ ذلك أن هيئتهم في منامهم الطويل ثم يقظتهم المعجزة، تحاكي تمامًا حال الإنسان في موته ثم بعثه ونشوره)[130].

ومن مشكاة هذه الآية تتجلى حقيقة كبرى؛ وهي أن الله سبحانه هو المتفرد بتدبير أمر دعوته، وهو المحيط بتقدير الأوقات المناسبة لظهورها وبلاغها، فما على السائرين في درب الدعوة إلا بذل الأسباب المشروعة، ثم تفويض الأمر إلى بارئها. لقد اقتضت الحكمة الربانية الباهرة أن يُنقل أصحاب الكهف عبر بوابة الزمن من عصر إلى عصر، وأن يُعثر عليهم في توقيت دقيق؛ ليكونوا برهانًا ساطعًا على انتصار كلمة الحق وجندها، وشاهدًا عيانيًا ملموسًا على طلاقة القدرة الإلهية في إحياء الموتى؛ إذ كان رقادهم الطويل أشبه بالموت، وكان استيقاظهم تجسيدًا حيًّا ليوم الحساب والنشور.

كما يحمل اللفظ القرآني المعجز ﴿أَعْثَرْنَا﴾ دلالة حاسمة على أن مقاليد التدبير كلها بيد الله وحده؛ فبينما كان الفتية يسعون جاهدين لإخفاء أمرهم حذرًا من بطش الطغاة قائلين :﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، كانت الإرادة الإلهية تخط بسبيل آخر، فأظهرهم الله على رؤوس الأشهاد ليكونوا سببًا في هداية أمة بأكملها، ويرسخوا في وجدانها اليقين بالمعاد.

لقد جاء هذا الإظهار الرباني في لحظة تاريخية فارقة، كان المجتمع يعيش فيها مخاضًا من الشك، ويموج بالخلاف والجدل حول حقيقة الآخرة والبعث، كما صورها القران :﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾؛ فكان انبعاث الفتية من مرقدهم هو الجواب الفصل والبرهان القاطع الذي حسم ذلك النزاع الفكري وأطفأ ثائرة الشكوك.

---

[129]) محاسن التأويل للقاسمي

[130]) جمهور المفسرين بالرأي على هذا القول: الكشاف 249/4 البحر المحيط 432/7 البيضاوي 474/3 النسفي 231/2

فمن ذا الذي كان يظن أن أولئك الفتية المستضعفين، الذين فروا بدينهم في عتمة الليل، سيغدون يومًا ما سببًا في تثبيت مجتمع بأسره على الحق؟ إنها التربية الإيمانية التي تقطع صلة المؤمن بالظروف المادية المحيطة، لتربط قلبه مباشرة بالوعود الربانية المطلقة؛ فمتى صدق العبد في ثباته وتضحياته، تولى الله بنفسه إظهار حقه، وصير محنته منارة يسترشد بها الحيارى، ليوقن العالم بأسره أن وعد الله حق، ولو اقتضى الأمر خرق نواميس الكون وتغيير الزمان والمكان.

قوله (إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) (21) يُروى أن هذا النزاع قد احتدم بعد أن عثروا على فتية الكهف وقد فارقوا الحياة، فلم يدركوا فيهم رمقاً ليسائلوهم عن نبئهم؛ فاحتربت الآراء في كنه ما يصنعون بمرقدهم، وانقسموا إلى فريقين :-

أما **الفريق الأول**—وهم أهل العلم والإيمان في ذلك العصر—فقد رأوا من الحكمة أن يُقام فوقهم بنيانٌ يسترهم؛ إعظاماً لحرمة الموت، وخشية أن يعبث بمرقدهم زائرٌ جافٍ، أو تطال أجسادهم وثيابهم يدٌ عابثة بالتقليب والمسّ. فكان الستر والحراسة ديدنهم[131]، ولعل القائلين بهذا الرأي هم أهل العلم والإيمان في ذلك الزمان ، لأنهم فوضوا الأمر لله (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ).

وأما **الفريق الثاني**—وهم رجالات السلطة وولاة الأمر الذين مالت كفة الغلبة لصالحهم—فقد رأوا، كما يذكر ابن عاشور، أن يُشيد فوقهم مسجدٌ يكون معلماً يخلد ذكرهم، ويضمن تعاهد الناس لجنبات كهفهم بالزيارة[132]. بيد أن هذا الصنيع يباين جوهر الشرائع السماوية؛ إذ لطالما حذر المصطفى ﷺ من هذا المسلك الذي أفضى ببعض الأمم السابقة إلى الغلو، وجعل من مراقد الصالحين حواضر للعبادة والتمسح، مما أورث ضلالاً مبادؤه التزلف للقبور. وفي هذا تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ في مرض وفاته قوله: «**لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[133]، مبيّنةً أن هذا التحذير هو ما حال دون إبراز قبره الشريف خشية أن يُتخذ مسجداً.

وتلك لمحةٌ كاشفة لآفةٍ اجتماعية تتكرر؛ فما إن تنقشع غمة الظلم وتتجلى رعاية الله للمجتمعات المؤمنة، حتى يلوح في الأفق أول صدعٍ بنيوي: أن يستبد ولاة الأمر بقراراتهم ناكبين عن مشورة أهل العلم والحكمة. ولذا جاء التعبير القرآني بليغاً في قوله :(قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ)، إشارةً إلى سلطة النفوذ التي تقهر سداد الرأي وتنفذ مشيئتها دون تروٍ، مصداقاً للتحذير النبوي الشريف: (**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً وَلا خَلِيفَةً إِلاَّ وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لا تَأْلُوهُ خَبَالاً، وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ**) [134].

قوله (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (22) هذا هو **الصدع الثاني الذي يحصل في المجتمع الإيماني** ، وذلك عندما ينشغلون **بقضايا فرعية ويتركون القضايا الأساسية** ، ينشغلون

---

[131]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج15 ص 43
[132]) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج15 ص 43
[133]) رواه البخاري ج13 ص 352 رقم 4087
134) رواه البخاري ج1 ص 99 رقم 256

بسفساف الأمور ويتركون معاليها ، يرجمون بالغيب بشأن تخمين عدد أصحاب الكهف ، وليس من وراء ذلك عمل ، يمارون في الأمر ، ويستفتي بعضهم بعضا ويتركون أصل القصة والفوائد التربوية منها .

في قوله (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) مَلمَح جليل يُرسخ أدب المعرفة؛ فأصل مسألة عِدّة أصحاب الكهف مما لا ينبني عليه تكليفٌ عملي، والعلم بها –وإن حازه نَفَرٌ قليل من الخلق– مقصورٌ على مَن يؤول عليهم نَفْعُه. فلو كان في هذا العلم هدايةٌ للعامة لما ضَنَّ الله بالحجب والمنع عنهم، إذ إن كل عِلْمٍ يمدّ العباد بالهدى مشاعٌ غير محجوب، وما اختصّ الله به قِلّةً من خلقه إلا لعلمِهِ بأنهم أهْلُ الانتفاع به.

وتلك سُنَّةُ الله في علم الغيب والشهادة؛ شأنها شأن العبد الصالح (الخضر) الذي أُوتِيَ من العِلم ما لَم يُحط به موسى عليه السلام، فانتفع الخضرُ بما عَلِم، ولم يَلْحق موسى ضَيْرٌ بجهلِ ما خَفِيَ عنه.

إن لُبّ الأمر وعين الحكمة يكمنان في عَدَم التكلّف في طلب العِلم إلا ما استبان غرضُه الشرعي وضَحَت غايته، أما الارتماء في غيابات الفضول المعرفيّ بلا ضابط، والاسترسال في كثرة السؤال، فمَسلكٌ مَذموم لا يورث إلا الشتات، ومصداق ذلك ما حذر منه نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال :(فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) [135].

قوله (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) إن عُمرَ الداعي إلى دين الإسلام والمُصلحِ أنفسُ من أن يُبدَّد في دروب المِراء العقيم، وفي ملاحقة الجدال الذي لا يثمر إلا ضياع الأوقات، ونفادِ الطاقات التي حَقُّها أن تُوجَّه للبناء والعطاء. لهذا أَدَّبَ اللهُ عبادَه بحفظِ جوهرِ الوقت، ورسم لهم مَعالِمَ الردّ إذا دَعَت إليه الحاجة؛ فجعل الاستثناءَ في الجدال أن يكون "مِراءً ظاهراً"—وهو الجدالُ المُستنِدُ إلى نورِ الحُجَّةِ البالغة، وصِدقِ الخبرِ المُوحَى[136]، دون توغُّلٍ في التفاصيل، أو غُلُوٍّ في الخصومة، أو تعنيفٍ في الخطاب[137].

وكما جَلّى الإمامُ ابن عجيبة عمقَ هذا الأدب القرآني؛ فإن المُماراةَ المَشروعةَ لا تَتعدَّى حدودَ ما كشفَه الوحيُ وضَبَطه، مع ردِّ علمِ ما خَفِيَ إلى العليم الخبير. فلا مَساحةَ في هذا المَقام لتسفيهِ الخصم، ولا لفضِيحةِ المُخطئ، ولا للتصريح بجهلِ الجاهلين؛ فإنَّ هتكَ المَستورِ مَفسدةٌ للمودَّة، والمُجاهرةَ بالتقريع خَدشٌ لمَكارمِ الأخلاق التي هي عِمادُ الدعوةِ ورُوحُها. [138]

وقد ذكر ابن كثير الأداب التي يجب مراعاتها في إدارة الخلاف وحكاية الأقوال المختلفة ، من خلال استنباطه للمنهجٌ القويم في التعامل مع المسائل التي دلت عليه الآية ، ويرتكز على مرتكزات أساسية كما يلي :-

الإيجاز البليغ في عرض أقوال أصحاب الكهف: بما ينبئ عن الترجيح بينها دون حاجة للترجيح ، إذ بيّن الله – تعالى– في [الآية 22] من سورة الكهف ثلاثة أقوال في عدة أصحاب الكهف،

- **القول الأول** :ثلاثة رابعهم كلبهم.

---

135) رواه مسلم ج12 ص 43 رقم 4348

136) الماوردي : النكت والعيون ج2 ص 470 تفسير اب عبد السلام ج3 ص 289

137) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 942

138) البحر المديد ج3 ص 390 ، تفسير أبي السعود ج4 ص 251

- **القول الثاني** :خمسة سادسهم كلبهم.
- **القول الثالث** :سبعة وثامنهم كلبهم

فأبطل القولين الأولين ووصفهما بأنهما (رجم بالغيب)، وسكت عن القول الثالث وأقره، مما يدل على صحته.

إحقاق الحق ودحض الباطل :المنهج الأكمل في استعراض الآراء يكمن في استيعاب الأقوال المحيطة بالمسألة، مع تبيان صحيحها وإبطال سقيمها؛ فالسكوت عن قولٍ بعد إبطال ما سواه دلالةٌ على صحته.

الترفع عن الجدال العقيم: الانشغال بالبحث في توافه الأمور وخفاياها التي لا يترتب عليها عمل (كعدّة أصحاب الكهف) هو جهدٌ مهدور في "رجم الغيب"، ولذلك نُهي عن الجدال العقيم في ذلك إلا مراءً ظاهراً دون تعمق أو تكلف.والأولى بالمرء تفويض علمها إلى الله والمضيّ نحو الأهم فالأهم.

يُروى أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يسأل عن الساعة: «يا رسول الله، متى الساعة؟»، فصرفه النبي ﷺ عما لا ينفعه (وقت الساعة) إلى ما ينفعه فعلًا، فقال له: «ماذا أعددت لها؟» رواه البخاري. فهذه هي عين الحكمة؛ فالسؤال عن عدد أصحاب الكهف كالسؤال عن وقت الساعة؛ كلاهما لا يزيد في الإيمان إن عُرِف، ولا ينقص منه إن جُهِل، ولكن العمل والعبرة هما الأساس.

محاذير النقص والخطأ :يقع في النقص من يعرض الخلاف مبتورًا فيسقط الرأي الصائب، أو يورده مرسلاً دون تمحيص، بينما يقع في الخطيئة أو الكذب من يُصحح الباطل عامدًا أو جاهلاً.

حفظ الوقت من التكرار :إن حشد الأقوال وتكثيرها بألفاظٍ مختلفة بينما مرجعها ومعناها واحد، ليس إلا هدرًا للوقت وادعاءً لعلمٍ زائف يُشبه "لابس ثوبي زور".[139]

من جماع ما تقدم يمكن القول بأن قيمة العلم تكمن في ثمرته، وإن أدب الخلاف يفرض علينا استيعاب المسألة بعدل، وتبيان الحق بوضوح، والإعراض عن فضول القول الذي يسرق العمر ويشغل المرء عن معالي الأمور.

قوله (وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) تجسيدٌ لمنهج رباني قويم؛ تضمن نهيٌ صريح عن استنطاق أهل الكتاب وسؤالهم عن تفاصيل أصحاب الكهف[140]، بعد أن ساق الحقُّ سبحانه من وحيهِ المعصوم ما يروي الغليل ويغني عن كدّ السؤال. وفي هذا توجيهٌ حكيم بأن يَمكث العقل في رحاب الوحي المستبين، بدل أن يتيه في دروب المجهول ومطاوح الظنون؛ فالاشتغال بما جلاّه الكتاب أَوْلى عروةً، وأنفع أثرًا، ممّا طواه علمُ الغيب وطمسَ معالمه. ومن ثَمَّ، تجلت حقيقة علمية مفادها: أن السعي وراء ما حُجِبَ عن الأفهام ضربٌ من التكلف الذي لا يثمر رَشَدًا، ولا يليق بجهد لبيبٍ أو همّة طالب علمٍ أن تتبدد في طلب ما لا ينفع تحصيلُه.

ومن شأن هذا الأدب القرآني أن يُوصِد أبوابَ الافتتان بما حوته التوراة والإنجيل، ويصرف نفوسهم عن تتبع ما طرأ عليهما من تبديل، أو التفتيش عمّا سلم من نَسْخٍ أو تحريف؛ إذ الركض خلفها مَضيعة لِلأعمار في غير طائل.

ويشهد لهذا المنحى غضبةُ المصطفى ﷺ حين أقبل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصحيفة أصابها من بعض أهل الكتاب، فقرأها عليه، فتمعر وجه النبي ﷺ غضبًا، وقال مقالته الزاجرة: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! وَالَّذِي

---

[139]) تفسير ابن كثير ج1 ص9

140) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 942

نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي) [141]

ويمتد هذا السياج المعرفي ليحمي العقول من التسكع في أروقة الفلسفات المادية، أو الانزلاق في دياجير كتب السحر والشعوذة تحت مسمى "فضول المعرفة" وشغف الاطلاع؛ إذ لا ريع وراء هذه المسالك يرتجى، ولا رشاد في ثناياها يُبتغى[142].

ويستثنى من هذا المنع من تضلّع بالعلوم الشرعية، ورسخت في الوحي قدماه، فغدا مؤهلاً لمخرزة المذاهب الضالة، وتفنيد الشبهات لِيحوط أُمّته ويصون حماها.

محل رخصة الراسخين في العلم (التحديث لا الاستفتاء) الراسخون في العلم لا "يستفتون" أهل الكتاب ليطلبوا منهم العلم والهدى، وإنما أُذِن لهم في **" المطالعة للنقد، أو الاحتجاج عليهم من كتبهم، أو التحديث عنهم بما يوافق شرعنا "**وفق الضابط النبوي: « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ** »[143]. فالعالم يقرأ في كتبهم ليرد عليهم أو ليبين تحريفهم، لا ليسترشد بها أو يستفتيهم .

ومع ذلك، يظل في كتاب الله وكافِ خطابه ما يربو على كل غاية، ويغني عن كل وسيلة؛ فوقت المسلم أثمن جوهرة تملكها يدُه، وحقيقٌ به ألا يبدده في غيابات ما لا يُغني ولا يُسمن من جوع.

قوله (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) يقول ابن كثير : (هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون)[144] .

يقول العلماء (مشيئة العبد تأتي بعد مشيئة الله تعالى لا مساوية لها؛ كما قال تعالى : " وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ " ؛ فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى؛ فالعبد وإن كانت له مشيئة – خلافا للجبرية –؛ فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا يقدر على أن يشاء شيئا إلا إذا كان الله قد شاءه؛ خلافا للقدرية من المعتزلة وغيرهم، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله، تعالى الله عما يقولون)[145].

---

[141]) رواه أحمد ج30 ص 173 رقم 14623 وصححه الألباني : إرواء الغليل ج6 ص 34

142) قال ابن عاشور (تفريع على الاختلاف في عدد أهل الكهف، أي إذا أراد بعض المشركين المماراة في عدة أهل الكهف لأخبار تلقوها من أهل الكتاب أو لأجل طلب تحقيق عدتهم فلا تمارهم إذ هو اشتغال بما ليس فيه جدوى. وهذا التفريع وما عطف عليه معترض في أثناء القصة.

والتماري: تفاعل مشتق من المرية، وهي الشك. واشتقاق المفاعلة يدل على أنها إيقاع من الجانبين في الشك، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه، فأطلق المراء على المجادلة بطريق المجاز، ثم شاع فصار حقيقة لما ساوى الحقيقة. والمراد بالمراء فيهم: المراء في عدتهم كما هو مقتضى التفريع.

والمراء الظاهر: هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه. وذلك مثل قوله: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} وقوله: {مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} ، فإن هذا مما لا سبيل إلى إنماره وإبايته لوضوح حجته وما وراء ذلك محتاج إلى الحجة فلا ينبغي الاشتغال به لقلة جدواه.

والاستفتاء: طلب الفتوى، وهي الخبر عن أمر علمي مما لا يعلمه كل أحد. ومعنى {فيهم} أي في أمرهم، أي أمر أهل الكهف. والمراد من النهي عن استفتائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف، فضمير {منهم} عائد إلى عاد إليه ضمير {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ} ،

[143]) رواه أبو داود ج10 ص 79 رقم 3177 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج8 ص 162

[144]) تفسير ابن كثير ج5 ص 148

145) صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ج1 ص111

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية : ما أخرجه ابن المنذر عن مجاهد ، أن قريشاً اجتمعت فقالوا : « يا محمد ، قد رغبت عن ديننا ودين آبائنا ، فما هذا الدين الذي جئت به؟ قال : هذا دين جئت به من الرحمن . فقالوا : إنا لا نعرف الرحمن ، إلا رحمن اليمامة – يعنون مسيلمة الكذاب – ثم كاتبوا اليهود فقالوا : قد نبغ فينا رجل يزعم أنه نبي ، وقد رغب عن ديننا ودين آبائنا ، ويزعم أن الذي جاء به من الرحمن . قلنا : لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، وهو أمين لا يخون . . وفيّ لا يغدر . . صدوق لا يكذب ، وهو في حسب وثروة من قومه ، فاكتبوا إلينا بأشياء نسأله عنها . فاجتمعت يهود فقالوا : إن هذا لوصفه وزمانه الذي يخرج فيه . فكتبوا إلى قريش : أن سلوه عن أمر أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح . فإن يكن الذي أتاكم به من الرحمن ، فإن الرحمن هو الله عز وجل ، وإن يكن من رحمن اليمامة فينقطع . فلما أتى ذلك قريشاً أتى الظفر في أنفسها فقالوا : يا محمد ، قد رغبت عن ديننا ودين آبائك . . . فحدثنا عن أمر أصحاب الكهف وذي القرنين والروح . قال : ائتوني غداً . ولم يستثن ، فمكث جبريل عنه ما شاء الله لا يأتيه ، ثم أتاه فقال : سألوني عن أشياء لم يكن عندي بها علم فأجيب حتى شق ذلك عليّ . قال : ألم ترنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة؟ – وكان في البيت جرو كلب – ونزلت " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً " من علم الذي سألتموني عنه أن يأتي قبل غد؟ ونزل ما ذكر من أصحاب الكهف ونزل " ويسألونك عن الروح . . . " [الإسراء : 85] الآية »[146].

وذات الأمر وقع فيه غيره من الأنبياء ، فعن رسول الله ﷺ قال (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَام لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ)[147].

وففي حوار مشهور بين قدري وجبري في مشيئة الله وقدرة العبد احتكما فيه إلى عالم من أهل السنة استبان منه مذهب كل منهما ورد أهل السنة عليهما [148]

---

[146]) انظر تخريج السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج6 ص 353 ،

[147]) رواه البخاري ج9 ص 399

148) طال الخصام بين قدري يعتقد: أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله وبين جبري يعتقد: ضد ذلك، وأنهم مجبورون على أفعالهم، واقعة بغير اختيارهم؛ لأنهما متباعدان في طرفي نقيض.

فاتفقا على التحاكم إلى عالم من علماء أهل السنة، يعرفان كمال معرفته، وكمال دينه.

فقال السني: ليعرض كل منكما علي مقالته، ولكما علي أن أدقق الحكم بينكما، وأن أرد ما مع كل واحد من باطل؛ وأثبت ما معه من الحق.

فقال القدري: أنا أقول: **إن الله حكم عدل، لا يظلم من عباده أحدا** ومن مقتضى إثباتي لهذا الأصل؛ **أني أنزه ربي عن أن تكون الفواحش الواقعة من العباد واقعة بمشيئة الله**؛ بل العبد هو الذي تجرأ عليها، وهو الذي فعلها استقلالا.

وأدلتي على هذا: جميع النصوص الدالة على أن الله ليس بظلام للعباد مثقال ذرة، وأنه حكم عدل؛ لأن تعلق مشيئته بأفعالهم.

ثم تعذيبهم عليها؛ ظلم من جهتين:-

- من جهة إضافتها إلى مشيئته.
- وظلم من جهة كيف يعذبهم على أمر هو الذي شاءه وقدره؟!

ثم **إني لو قلت: إنها واقعة تحت مشيئة الله؛ لأبطلت بذلك أمر الله ونهيه. بل في ذلك إبطال للشرع**، فأنا ما رأيت السلامة من هذا المحذور المحظور، إلا بهذه الطريقة العادلة التي يرتضيها كل عاقل ميزه الله.

فقال الجبري: أنا أقول: **إن الله على كل شيء قدير، وإنه خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.**

قضايا، لا يمكن مسلم أن ينكرها، ولا ينازع فيها.

وهذا عموم لا يخرج عنه حادثة، **ومن أعظم الحوادث أفعال العباد من طاعات، ومعاصي وغيرها.**

فلو أنها خارجة عن قدرة الله ومشيئته، لم يكن الله قديرا على كل شيء ولا خالقا لكل شيء.

فمذهب القدري اعتقاده أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله، وأن العبد يفعلها استقلالاً. ودوافعه وحجته :تنزيه الله عن الظلم (فلا يعقل أن يشاء المعصية ثم يعذب عليها)، ولحماية الشرع من إبطال الأمر والنهي.

وقد حكم السني عليه بأنه أصاب في إثبات أن الأفعال كسب للعباد حقيقةً وتنزيه الله عن الجبر، وأخطأ خطأً كبيراً بنفي مشيئة الله وقدرته عن أفعال خلقه.

ومذهب الجبري اعتقاده أن العباد مجبورون ومقسورون على أفعالهم دون أي اختيار.ودوافعه وحجته :تعظيم قدرة الله وعموم مشيئته وخلقه لكل شيء في الكون (فلو كان للعبد اختيار لخرجت أفعاله عن ملك الله).

وقد حكم السني عليه بأنه أصاب في إثبات عموم قدرة الله ومشيئته وخلقه لكل شيء، وأخطأ خطأً كبيراً بادعائه أن هذا العموم يستلزم جبر العباد وسلب اختيارهم.

أما حكم ومذهب أهل السنة والجماعة (وهو القول الفصل) إثبات مشيئة العبد واختياره : **فالعبد فاعل لكل أفعاله حقيقةً، وله مشيئة يختار بها الطاعة أو المعصية، وبها يستحق الثواب أو العقاب.**

مع مراعاة الفهم بأن :**مشيئة العبد لا تخرج عن مشيئة الله وعموم خلقه. فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله** . وهذا يدل على القدرة المطلقة لله وأنه هو مدبر الأمر ، فلا شيء يخرج عن تدبيره .

ومقضي ذلك: أن العباد مجبورون على أفعالهم، غير مختارين لها لأنهم لو اختاروها وفعلوها حقيقة؛ لخرجت عن مشيئة الله وقدرته.

فتعين القول بالجبر، وأنهم مجبورون مقسورون على أفعالهم، وقد نفذت فيهم مشيئة الله، وصرفتهم الإرادة.

وأدلتي على قولي هذا: جميع النصوص المثبتة لعموم خلق الله ومشيئته وقدرته؛ وأني لو قلت: إن العبد فاعل حقيقة لفعله؛ لأخرجت هذا القسم عن مشيئة الله وقدرته.

فقال الحاكم السني: لقد وضح كل واحد منكما مذهبه توضيحا كاملا، واستدل كل واحد بأدلة لا يمكن المنازعة فيها؛ لكثرتها ووضوحها. ولكن كل واحد منكما لم ينظر المسألة من جميع نواحيها بل لحظ جانبا، وعمي عن الجانب الآخر. وكثير من الأغلاط يأتي من هذا السبب. وسأحكم بينكما بحكم يستند على الكتاب والسنة ويستند إلى العقل والفطرة. وسأقنع كل واحد منكما إن كان قصده طلب الحقيقة.

أما أنت أيها القدري؛ فأصبت بقولك: إن **أفعال العباد كلها من كسبهم**، وكلها من فعلهم، طاعاتها ومعاصيها وغيرها من أفعالهم.وأصبت في استدلالك عليها؛ بأن **الله نسبها وأضافها إليهم**.وأصبت في تبريك من قول يلزم منه إسقاط الأمر والنهي؛ وهو: الجبر.

ولكنك أخطأت خطأ كبيرا، حيث زعمت أن مشيئة الله وقدرته لا تعلق لها بأفعال العباد.ففيت عموم النصوص الدالة على هذا الأصل؛ وظننت أن إثبات عموم الخلق والمشيئة لله ينافي كون الأفعال الصادرة من العباد تكون باختيارهم ومن كسبهم.وهذا الظن غلط محض. بل المؤمن العارف يجمع بين الأمرين: **يثبت لله تعالى أنه خالق كل شيء؛ من الأعيان والأوصاف والأفعال. وأنه مع ذلك الأفعال صادرة منهم حقيقة.**

وأما أنت أيها الجبري؛ فلقد **أصبت بإثباتك: أن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء وأنه ما شاء كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن**، وأصبت في هذا الاستدلال.

ولكنك أخطأت خطأ كبيرا، حيث زعمت أن من لوازم إثبات عموم مشيئة الله؛ أن العبد مجبور على أفعاله؛ لم تقع بمشيئته، وظننت أن إثبات عموم القدر يقتضي منك أن تقول هذا القول.

ثم قال السني أيضا لهما: لقد قال كل منكما قولا ممزوجا حقه بباطله؛ وسأحكم بينكما بحكم، يتضمن إثبات ما مع كل منكما من الحق؛ وإبطال ما مع كل منكما من باطل.

وقد دل على هذا الحكم عدة نصوص:-

منها قوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:28، 29]. فهذه الآية الكريمة حكمت بينكما؛ فإن الله أثبت للعبد مشيئة بها يفعل ويسلك الصراط المستقيم، أو يدعه باختياره ومشيئته.

وأخبر أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، غير خارجة عنها. فمشيئة الله عامة، لا يخرج عنها شيء ومع ذلك فالعباد هم الذين يعملون ويطيعون ويعصون.

ومع أن هذا هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة فهو الذي يدل عليه العقل والواقع والحس. فإن الله خلق العبد، وخلق ما فيه من جميع الأوصاف والقوى.

ألستما تعترفان بذلك، وكل عاقل يعترف به؟! قالا: بلى.

قال السني: فإن **من جملة أوصاف العبد التي خلقها الله فيه انه أعطاه قدرة ومشيئة يتمكن بهما من كل ما يريده من خير وشر**، وطاعة ومعصية وبهما تقع طاعاته ومعاصيه. وتعلمان: أن العبد متى أراد أمرا من الأمور التي يقدر عليها، فعله بتلك القدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه.

فإذا أوقع العبد بهما فعلا من أفعاله، دخلت تحت عموم قدر الله؛ لأن خالق **السبب التام الذي هو قدرة العبد وإرادته خالق للمسبب**.يعني: لما يصدر عنهما . **وكل منكما يعترف أن الله خالق قدرة العبد ومشيئته كما خلق جميع قواه الظاهرة والباطنة.**

فإذا اتفقتما على هذا القول؛ الذي هو الصواب بما عرف من دلالة النصوص الشرعية عليه، وأنه هو المعقول المحسوس عاد الأمر إلى الوفاق. فليتبرأ كل منكما من الباطل الذي معه، وليعترف بالحق الذي مع صاحبه.

ليتبرئ الجبري من اعتقاده: أن العبد مجبور مقهور على أفعاله.وليعترف: أنها واقعة بكسبه وفعله حقيقة.

وليتبرئ القدري من اعتقاده: أن أفعاله غير داخلة تحت مشيئة الله وغير شامل لها خلق الله وقدره.وليعترف: بعموم خلق الله، وشمول قدره.

والحمد لله الذي بين الصواب، ووفق من شاء من عباده لاتباعه. (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة: 213].

انظر مكتبة الشيخ عبد الرحمن السعدي ج3 ص 96

بهذا قضى العالم السني بالجمع بين الحق الذي مع الطرفين وإبطال باطلهما، مستدلاً بالقرآن (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:28، 29].

كما أن العقل يقضي بتوفيق (السبب والمسبب) : فالله هو الذي خلق في العبد القدرة والإرادة (السبب التام)، وحيث أن الله خالق السبب، فهو بالتبعية خالق للمسبب (الأفعال الناتجة عن تلك القدرة).

إذن لابد من تقديم المشيئة قبل العزم علي أي عمل ، ومما يدل على أهمية هذا الأدب وعلو شأنه هو أن الله سبحانه وتعالى قد استثنى في كلامه فقال: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ) [الفتح: 27].

قال ثعلب .: «إن الله استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلق فيما لا يعلمون»[149]، وقال سيد قطب .: «ولكن الله سبحانه يؤدِّب المؤمنين بأدب الإيمان؛ فالدخول واقع حتم؛ لأن الله أخبر به... إنه أدب يلقيه الله في رُوع المؤمنين ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور»[150] .

قوله (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) (23) قال ابن كثير رحمه قيل معناه (إذا نسيت الاستثناء فاستثنى عند ذكرك له) يعني (إذا لم تقل: إن شاء الله نسياناً، ثم تذكرت بعد ذلك فإنه يصح أن تقولها، قاله أبو العالية والحسن البصري، فعن بن عباس : أنه كان **يرى الاستثناء ولو بعد سنة** ثم قرأ "ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت" يقول إذا ذكرت[151].

وعن ابن عباس في هذه الآية قال : إذا نسيت أن تقول لشيء؛ إني أفعله ، فنسيت أن تقول إن شاء الله ، فقل إذا ذكرت : إن شاء الله)[152] .

قوله (وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) (24) فالتماس الهدى من الله وحده ، ولذلك كان النبي ﷺ يرتجز ويقول (لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) ، والهدى طريق الرشاد ، فمن التمس الهدى اقترب من طريق الرشاد ، كما في قوله (فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) (الجن 14) .

وفيه إشارة إلى قصَّة أصحاب الكهف الذين هادهم الله إلى الهجرة بدينهم فرارا من أذى قومهم ، وقد هدى الله نبيه لمثل ذلك لما هاجر وأصحابه إلى المدينة ،فلطف بهم من أذى قريش ، وهكذا يغير الله لعباده ظروف الدعوة المكانية والزمانية كيفما يشاء قال صاحب اللباب ، أي : (لعلَّ الله يؤتيني من البيِّنات والدلائل على صحَّة نبوَّتي وصدقي في ادِّعاء النبوة ما هو أعظم في الدلالة ، وأقرب رشداً –مثل– قصَّة أصحاب الكهف)[153] .

---

149) مجلة البيان عدد 232 ص 22 تصدر عن المنتدى الإسلامي

150) «في ظلال القرآن» لسيد قطب، (6، 3330).

[151]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج1 ص 44 رقم 119

[152]) انظر السيوطي : الدر المنثور ج6 ص 353 أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني

[153]) أبو حفص سراج الدين الحنبلي : اللباب في علوم الكتاب ج10 ص 442

قال ابن عاشور (لما أبر الله وعد نبيه ﷺ الذي وعده المشركين أن يبين لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك **بعتابه على التصدي لمجاراتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله،** وأمره أن يذكر نهي ربه ، ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به، أمره هنا أن يخبر سائليه بأنه **ما بعث للاشتغال بمثل ذلك** ، وأنه يرجوا أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصة ، وإن كانت هذه القصة تشتمل على موعظة وهدى ولكن **الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم** وأهم. والمعنى: وقل لهم عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا)[154].

يقول المفكر سيد قطب (على العبد أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره ؛ وأن **يستعين بمشيئة الله على ما يعزم** ، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، **فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره** ، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فبها ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ، لأن الأمر لله أولاً وأخيراً .

إذ يتناول الرجاء بـ (عسى أن يهديني..) معنى التسليم لله والاتصال به في السعي والتدبير، مؤكدًا أن حركة الإنسان في الحياة يجب أن تنطلق من استشعار المعية الإلهية ونفوذ المشيئة الربانية.ويمكن تلخيص هذا المنهج الإيماني في النقاط التالية :-

التدبير البشري تحت مظلة المشيئة الإلهية :يتعين على الإنسان أن يسعى ويفكر ويخطط، لكن دون أن يغيب عن وعيه أن تفكيره تيسير من الله، وتدبيره توفيق منه، وأن يد الله فوق كل جهد بشرى.

الرضا بالمقدور وقاية من الحزن والغرور :إن النجاح والفلاح يستوجبان الشكر والتواضع والبعد عن الغرور، بينما الإخفاق والتعثر يقتضيان الرضا والتسليم دون يأس أو قنوط، فخيرة الله للعبد أفضل من خيرته لنفسه.

الربط بين التوكل وحيوية السعي :هذا المنهج الإيماني لا يورث كسلًا ولا يدعو إلى تراخٍ، بل هو منبع دائم للثقة والسكينة، ويمد العبد بالقوة والعزيمة لمواجهة تقلبات الحياة.

الذكر الدائم والترقي المستمر : يظل المؤمن في كنف الله متصلًا به، فإن غفل أو نسي عاد سريعًا بالإنابة والاستغفار، طامعًا في الهداية لأرشد الأمور وأقربها إلى الحق، مستشعرًا بالأنس بوجود الله، فلا تفرقه وحشة العزلة، ولا توبقه حسرة الخذلان.

ويقول صاحب الظلال (. . من هذا المنهج الذي يصل القلب دائماً بالله ، في كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه ، وتجيء كلمة (عسى) وكلمة (لأقرب) للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه في جميع الأحوال)[155] .

قوله (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) (25) هذه المعلومة قررها المولى في كتابه لا ليحسم الجدال في شأن كم مكثوا ؟ ولكن للدلالة على أن الله سبحانه له حكمة في أن تظل **بذرة الإيمان كامنة كل هذه المدة** حتى **تنبت في زمان غير الزمان** وإن كان في ذات المكان لكن مع أناس آخرون يشاهدون هذه المعجزة ويؤمنون بأهل

[154]) التحرير والتنوير ج15 ص 50
[155]) في ظلال القرآن ج5 ص 59

الكهف الذين لم يؤمن بهم من كان قبلهم من أزمان غابرة ، **فالبذرة المؤمنة لابد وأن تثمر ثمرة طيبة ولو بعد حين** من الزمان ، فالله المستعان وعليه التكلان ، إن الله ادخر الكلمة الطيبة التي احتفظ بها أهل الكهف ثلاثة مئة سنة وزيادة تسعا لأجل أن يلقي أهل الكهف بذرة الإيمان في أرض خصبة طيبة تؤتي ثمارها فيها بعد أن كان الأرض قاحلة لا تنتج ثمرا ، بعثهم الله تعالى بعد كل هذه المدة ليشهدوا لأهل هذا الزمان الجديد بأن (وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) فينتفع أهل ذلك الزمان بتلك المقولة التي شهدوا بها .

ففي قوله(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) تتجلى حكمٌ بالغة تَرُدُّ العقل البشري إلى جادة العجز والافتِقار أمام علم الله المحيط ، ولفتةٌ ربانية تحسم الخوض في تفاصيل الأرقام التي لا ينبني عليها عمل. لقد ردّت الآية المسألةَ برُمّتها إلى ساحة التفويض المطلق لله تعالى، وكأنها تهمس في وعي المؤمن: إنَّ الاشتغال باستقصاء ما غُيِّبَ عنك فضولٌ لا يغني من الحق شيئاً، فـ **"اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا"**، وليس لنا أن نترامى على حِمى الغيب مالم يَمُنَّ علينا الخالق ببيانٍ منه.

ثم يأتي الثناء العظيم على كمال إدراك الحق سبحانه بصيغة تعجبٍ جليلة تخلب القلوب :**"أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ"**، وهي في لغة العرب تفيد المبالغة والتعظيم، أي: ما أبصره سبحانه وما أسمعه! وفي هذا المقام الأسمى، يروي الإمام الطبري عن قتادة في تفسير هذه الآية قوله" **لا أحدَ أبصرُ من الله ولا أسمع تبارك وتعالى**[156] "؛ فبصره محيطٌ بحركات النمل في غياهب الظلم، وسمعه وسع نجاوى القلوب وخفايا الصدور.

والمعنى العملي المراد سوقه هو أن يقف المسلم عند حدود ما علمه الله إياه ، فيبصر ما أمره الله بأن يبصره ، ويسمع ما أمره الله أن يسمعه ، ولا ينشغل بما لم يسمع ولم يبصر وقد أبصره الله وسمعه

-

فالأولى هو الانشغال بما أُمرنا به : فما دام الله هو الكامل البصر والسمع، وقد حدد للإنسان بفضله ورحمته ما ينفعه من السمع والبصر والعلم. فالانشغال بما وراء ذلك (التكلف، الفضول المعرفي فيما لا ينفع، أو محاولة إدراك ما غُيِّب عنا) هو خروج عن مقتضى العبودية.

فمن أدب المعرفة :أن يقف العبد عند حدود عجز وسعه البشري، فيقول كما قالت الملائكة :(سبحانك لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) .فالله هو الذي يُبصِر ويَسْمَع كل شيء، أما العبد فيبصر ويسمع بمقدار ما مكنه الله وهداه إليه، ووظيفته إزاء ذلك هي الامتثال والعمل، لا التطلع والتكلف.

وهذا الفهم يُعدّ من" فقه الآيات "واستخراج الهدايات العملية منها؛ فبينما يقرر اللفظ صفة الكمال لله تعالى، فإن أثر هذا المقرَّر في قلب العبد هو السكينة والتسليم، والوقوف عند حدود الوحي والأمر، وترك ما غاب عنه لعالم الغيب والشهادة.

قوله (..ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) إذ تنعطف الآيات لتضع أيدينا على الثمرة الكبرى والغاية الأسمى من القصة كلها ، وهنا يكمن بيت القصيد، وينجلي سرُّ تلك الحكاية العجيبة؛ ففتية الكهف ما تلمسوا

---

[156]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 197 رقم 13823

حبلَ ولايةٍ من بشر، ولا ارتضت نفوسهم الأبية الخضوع لحكم طاغيةٍ أو النزول على رغبة وثن، بل قطعوا علائق الأرض وعلّقوا قلوبهم بالسموات، فغمرهم الله بلطفه الخفي، ونشر لهم من رحمته ما وسع الزمان والمكان.

إنها المفارقة الخالدة؛ فأهل الإشراك والظلم –وإن دالت لهم الأيام– لا وليّ لهم يحميهم من سطوة الحق، ولابد لليل زمانهم أن ينجلي، ليبقى الحكم نفّاذاً لله وحده، لا ينازعه في سلطانه منازع إلا قُصِم، ولا يبارزه جبار إلا هُزِم. وكيف لا، وهو القائل في محكم تنزيله :"**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**" .فسبحان من بيده مقاليد الأمور، وإليه ترجع عواقب الدهور.

المحور الثاني

التعقيب على قصة أصحاب الكهف

قال تعالى (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)

توجّه آيات هذا المقطع من السورة المؤمن وتوضح له معالم الطريق في مواجهة فتن الدنيا وتقلباتها. فبعد انتهاء قصة "أصحاب الكهف" وما فيها من دروس، يقدم السياق القرآني للنبي ﷺ ولأمته من بعده منهجاً قلبياً وعملياً ثابتاً يركز على معنيين أساسيتين :-

الأول وهو **التمسك بالوحي** :باعتباره المصدر الآمن للحماية من المظاهر المادية الزائفة ، وهو ما أشارت إليه مقدمة السورة ، ففيه الغنى والكفاية ، فالانشغال بتلاوة القرآن الذي لم يلحقه نسخ أولى من سؤال أهل الكتاب ، والاطلاع على كتبهم التي طالها التحريف ، فتلك من أعظم النعم التي أنعم الله بها على البشرية جمعاء .

وما كان يملك فتية الكهف شيئا من حطام الدنيا إلا بعض صفحات من الإنجيل يتلونه ويستمسكون بهداه

الثاني : **صحبة الصالحين** : وضرورة الالتفاف حول الأخيار والعلماء، حتى وإن كانوا فقراء في عيون الناس؛ فالقيمة عند الله ليست بالمال والجاه، بل بنقاء القلوب المستمرة على ذكره ، ولذلك لم تخلو الآيات من فائدة الإشارة إلى عدد أصحاب الكهف ، فلما زاد عددهم كانت الإعانة على الطاعة أكثر ، وأنفع ، وقد أرشد لهذاالمعنى النبي ﷺ فقال (وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ)[157] .

ونلحظ في هذا المقطع التركيز بوجه خاص على بعض المعاني التربوية كالتالي : -

الأمر بالتمسك بالوحي والقرآن : فقد أمر الله نبيَه بمواصلة تلاوة ما أُنزل إليه من الكتاب والعمل به وعدم الالتفات لما يقترحه المشركون أو يطالبونه به .

تأكيد صدق الوحي والثبات عليه : جاء الأمر للنبي ﷺ باتباع وتلاوة القرآن الكريم ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ باعتباره المصدر اليقيني والوحيد الذي يقصّ الحق والنبأ الصادق لقصة أهل الكهف. فبعد أن بيّنت الآيات السابقة كراهة كثرة

---

[157]) رواه الترمذي ج8 ص 69 رقم 2091 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 165 رقم 2165

الجدال في أمر الفتية ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾ ، جاء التعقيب ليوجه إلى الاكتفاء بالوحي ، والابتعاد عن مجاراة اقتراحات وجدال المشركين وأهل الكتاب

تثبيت النبي ﷺ على الحق :جاءت تعقيباً وتثبيتاً له بأن هذا القرآن هو الحق الصدق الذي "لا مبدل لكلماته" أي لا يستطيع أحد تغييره أو تحريفه أو تبديل وعيده وعده

التحذير من الالتجاء لغير الله :قوله "ولن تجد من دونه ملتحدا" يعني أنه لن يجد لنفسه ملجأً ولا مهرباً ولا حافظاً ولا ولياً ينصره غير الله إن ترك تلاوة الوحي واتباعه

وكما لجأ الفتية في قصة أهل الكهف إلى الكهف فراراً بدينهم فآواهم الله، فكذلك لا ملجأ للعبد ولا منقذ له من أحكام الله وقدره إلا بالالتجاء إلى الله وحده والتمسك بكتابه.

الربط بين هجرة الفتية ولزوم هجرة القلوب لزينة الدنيا : تعد القصة تمثيلاً حياً لفرار المؤمنين بدينهم من طغيان الكفر وزينة الدنيا؛ حيث ترك أصحاب الكهف حياة القصور والرفاهية آوين إلى الغار. وعقب الفراغ من القصة، أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين بملازمة فقراء الصحابة المستمسكين بالدين ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وعدم الانبهار بأكابر قريش وأغنيائهم الذين طغوا بزينة الحياة الدنيا ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

إعلان التوحيد لابد وأن يؤول يوما إلى المفاصلة الإيمانية : مثلما أعلن فتية الكهف ثباتهم على الحق أمام ملكهم الظالم (﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾)، جاء التعقيب مباشرة بالأمر بالصدع بالحق دون مداهنة للأغنياء أو المشركين: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

لابد من بيان العاقبة والمصير: اختتمت المناسبة بوضع مقارنة وميزان دقيق لعاقبة الفريقين (الظالمين والمؤمنين) تذكيراً بمصير من اختار الدنيا أو الآخرة ، إذ ينساب هذا التوجيه الرباني متوازناً بين الترهيب والترغيب؛ فيحذر تارة من عذاب النار وأهوالها، وتارة أخرى يرغب في جنات عدن ونعيمها، ليكون هذا المقطع دليلاً روحياً يجمع بين وضوح المنهج وعمق التأثير:-

- فريق ابتعد عن الحق : واتبع هواه فخسر وضاع أمره.
- فريق آمن وعمل الصالحات : ففاز بالقرب من الله في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

قوله (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ) أمر الله نبيه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه [158]، (فاستبان أن التلاوة من النبي ﷺ وأصحابه، وأن الوحي من الرب)[159] ، أي أن (التلاوة والامتثال هما دأب النبي وأصحابه، بينما الوحي والتشريع هما محض فيضٍ من رب العالمين. قال رسول الله ﷺ (يُقَالُ **لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**)[160] ، فعلى قدر ملازمة العبد للقرآن تلاوةً، ومدارسةً، وترتيلًا، يربو إيمانه في الدنيا، وتعلو درجاته في أعالي الجنان.

---

[158]) شرح العقيدة الواسطية للفوزان ج1 ص 69
[159]) معراج القبول ج2 ص 592
[160]) رواه أبو داود ج4 ص 263 رقم 1252 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص205

لقد تجلّى في آي الذكر الحكيم أن مَعين العلم الإلهي ونبع الهدى الرباني إنما يتدفق من مشكاة الوحي برافديه؛ رافدٌ يفيض باللفظ والمعنى معاً، وآخر يفيض بالمعنى دون المبنى. فكتاب الله جل وعلا هو الدستور الأسمى الذي لا تبديل له ولا عِوض عنه، إذ حصر مصادر التلقي عن الباري سبحانه —في لفظه المحكم ومعناه المعجز— بين دفتي ما سُطِّر في التنزيل، وأوحاه الملك الجليل إلى عبده ومصطفاه؛ وهو القرآن الكريم. أما ما كان وحياً بمعناه دون مبناه، فقد تجسّد في السُّنّة النبوية المطهرة؛ القولية، والفعلية، والتقريرية ، حيث صِيغت معانيها الشريفة ببيان النبي المصطفى ﷺ ولغته الفصيحة.

ومقتضى هذا البيان —بمفهوم المخالفة ودلالته— أن الولوغ في أساطير الأولين، ومساجلة أهل الكتاب ومحاججتهم، لا يستقيم ولا ينبغي إلا أن يدور في فلك ما قَصّه القرآن الكريم، أو ما لَقّنه الله لنبيه العظيم. وما وراء ذلك من حكايات عابرة أو حجج واهية لا أصل لها في الكتاب والسنة، فهو نافلة لا غناء فيها؛ إذ في الوحيين الكفاية والهداية، وهما الصراط المستقيم الذي لا أود فيه ولا اعوجاج.

قوله (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) (27) قال ابن جزي (يحتمل أن يراد بالكلمات هنا القرآن ، فالمعنى لا يبدل أحد **القرآن** ولا يغيره ، ويحتمل أن يريد بالكلمات **القضاء والقدر**)[161]

وعن ابن عبَّاس – رضي الله عنهما – قال مَعْنَى «لا مُبَدِّل لِكَلماته» **لا رادَّ لِقَضَائِه ولا مُغَيِّر لِحكمه** ، ولا خُلْف لوعْدِه ، وهو السَّمِيع العَلِيم)[162]

قال القاسمي (كلماته التي هي **أصول التوحيد** والعد وأنواعهما ، وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها ، فأشار إلى أن النسخ إنما هو في الفروع لا الأصول) .

وهنا يقف البيان القرآني شامخاً شموخ الحق، ومحيطاً بإحكام العبودية والربوبية. فـ" كلمات الله "هنا فيضٌ من جلاله؛ إن أردت بها **القرآن العظيم**، فهو الكتاب المستعصي على التحريف، والمصون بحفظ الله من عاديات الزمن وتبديل المخلوقين، يظل للثقلين (الإنس والجن) نبعاً صافياً ومنهاج حياة لا يأتيه البول ولا يغشاه الأفول.

وإن غصت في عمق التفسير **لتراها القضاء والقدر**، تجدها مشيئةً نافذة وحكماً قاهراً؛ لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا خلف لوعده الإلهي الصادق، تمضي مقاديره في خلقه برحمة السميع وبحكمة العليم.

كما يتضح من من وجهة نظر علماء الأصول أن هذه الكلمات هي **قواعد التوحيد الراسخة وموازين العدل المطلق**؛ تلك **الأصول الثابتة** التي لا يمسها نسخٌ ولا يطالها تبديل، وإنما تبدلت الفروع والشرائع السابقة لحكمٍ ومصالح، ليظل جوهر الدين واحداً متصلاً بجمال الذات الإلهية.

وقوله (مُلْتَحَدًا) مَلْجَأً وَمَوْئِلاً [163] أي ملجا تميل إليه ، قال البخاري (مُلْتَحَدًا) مَعْدِلًا وَلَوْ كَانَ مُسْتَقِيمًا كَانَ ضَرِيحًا[164] (الملتحد) : الملجأ المفقود خارج حمى الرحمن ، فالمراد بالملتحد : (**المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ**

---

[161]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 945

[162]) اللباب في علوم الكتاب ج7 ص 140

[163]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 2168 ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ص 1005 .

[164]) رواه البخاري ج5 ص 129

للنجاة)[165] ..ما يعني أن القرآن هو المنهج لحياة الإنسان في هذه الدنيا ، بل هو **منهج للثقلين** ، وليس له بديل ، ومن يلجأ لغيره ولو في مسألة واحدة فقد ضل السبيل .

ولفظة "ملتحدا" يتجلى منها تصوير أدبي بديع ؛ فالملتحد هو ذلك الملاذ الذي يميل إليه الإنسان هرباً من لوافح الخطوب، والموئل الذي ينشده طلباً للنجاة.

فالآية تقطع دابر أوهام المشركين الذين يؤوون لقصورهم يحتصنون بجنودهم ، وقلاعهم ، لتؤكد لهم أنه ليس في الوجود كنفٌ يؤوي، ولا حِصنٌ ينجي، ولا مأمنٌ يقي خارج حِمى الله وكتابه ، فمن حاد عن هذا الصراط المستقيم، وابتغى في مَعْدِلاً عن الحق ، والتمس لحياته ملجأً في شرعة غير شرعة الله، فقد ضلَّ سواء السبيل، وباء بالتيه والخسران.

فالقرآن الكريم ليس مجرد نصوصٍ تُتلى، بل هو الصراط الأوحد للثقلين؛ فمن استمسك بكلماته فقد آوى إلى ركن شديد لا يتبدل، ومن ابتغى الهدى في غيره تاه في بيداء الحيرة، ولن يجد من دون الله ملجأً يميل إليه ولا موئلاً يعصمه.

فالقرآن هو منهج حياة يتعبد به لله ، ولما كانت الصلاة زاخرة بالقرآن ، فإن رسول الله ﷺ كان يقول (يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)[166] ، فلم يكن النبي ﷺ يبحث عن ملجأ غير جناب الله ، فكانت الصلاة له بمثابة معراجًا للروح، وفرارًا من ضجيج الناس إلى رحابة الخَالِق.

وهذا المنهج النبوي هو ذاته الذي سكب السكينة في قلوب الأصحاب؛ فحين أثقلت الهموم كاهل الصحابي الجليل "أبو أمامة" وضاق بظلال الديون، لم يجد ملجأً يلمس فيه الطمأنينة سوى المسجد، في وقتٍ خلا فيه المسجد من الراكع والساجد، لكنه امتلأ بقلبٍ منكسرٍ لله.

ولأن النبي ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، لم يتركه لآلامه، بل صاغ له طوق النجاة، وعلمه كلمات هي بمثابة "حبل الوريد" للعبور فوق الأزمات؛ كلمات تستنهض الهمة، وتطرد عجز النفس، وتستجلب مداد السماء. وحين امتزج الدعاء باليقين والعمل، تبددت السحب، وأشرق الفرج، فقُضي الدين وانجلى الهم.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ :**(يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟)** قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ :**(أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟)** قَالَ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ :**(قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجَزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ .«**قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي)[167]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ ثَمَانٍ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَغَلَبَةِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الْعَدُوِّ)[168]

---

165) قال طنطاوي وأصل الملتحد : مكان الالتحاد وهو افتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه ميل فى الحفر . ومنه قوله - تعالى - : { إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ . . } أى : يميلون فى آياتنا .

166) رواه أبو داود ج13 ص 165 رقم 4333 وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن أبي داود ج10 ص 485 رقم 4985

167) رواه أبو داود ج4 ص 353 رقم 1330

168) رواه أحمد ج24 ص 324 رقم 11778 وصححه شعيب الأرنؤوطي

قوله (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (28) تضمن توجيها إلهيا للنبي محمد ﷺ أن يتحلق بأصحابه الذين يريدون وجه الله في أعمالهم ، وألا يغفل عنهم ، طمعا في شيء من الدنيا ، ولو كانت قسرة خبز ، فليصبر عليها حتى يفرغ من تزكيتهم وتعليمهم ، ولا يغتر بأهل الهوى ، ولا يطعهم في شيء ، فهم مفرطين في حق أنفسهم وحق الله عليهم .

ولعلَّ تلك العجلةَ المباركةَ التي تملّكتْ فؤادَ النبيِّ ﷺ لم تكنْ إلا دافعاً من فيض حرصِهِ الشديد على هداية قومه، حتى أنسته—في غمرة شوقه لإسلامهم—أن يقرنَ وعْده بـ'مشيئة الله'. لقد وفدوا إليه يختبرون نبوّته بمسائلَ أوعز بها أهلُ الكتاب، ومنها قصةُ فتية الكهف، فظنَّ ﷺ أنَّ في تعجيل الجوابِ مفتاحاً لقلوبهم وبادرةً لإيمانهم. بيدَ أنَّ الإرادة الإلهية أبتْ إلا أن تضعَ الأمور في نصابها الحقّ؛ فأخّر الوحيَ ليلفتَ نظر نبيّهِ الكريم إلى عظيم شأن أولئك الفتية الأطهار ومَن سار على دربهم من الضعفاء والمؤمنين، مبيّناً له أنَّ مقامهم عند الله أسمى وأزكى من صناديد قريش، ليُقبلَ عليهم برعايته، ولا يصرفَ بوصلة اهتمامه عنهم.

فعَنْ خَبَّابٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِلَى قَوْلِهِ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ) قَالَ جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنْ الضُّعَفَاءِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَّرُوهُمْ فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ ، وَقَالُوا إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ قَالَ نَعَمْ قَالُوا فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا قَالَ فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ (وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ) ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ فَقَالَ (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ثُمَّ قَالَ (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) قَالَ فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) وَلَا تُجَالِسْ الْأَشْرَافَ (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) يَعْنِي عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعَ (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) قَالَ هَلَاكًا قَالَ أَمْرُ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، قَالَ خَبَّابٌ فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ)[169]ﷺ ، وفي رواية (وَإِلَّا صَبَرَ أَبَدًا حتى نَقُومَ)[170] يعني أنه كان يستحيي أن يقوم حتى يقوم أصحابه مخافة أن تعد عينيه عنهم ﷺ فكان في أصحابه الفطانة أن قاموا حتى لا يستشعر الحرج إذا أراد أن يقوم ، فيقومون قبله .

[169]) رواه ابن ماجة ج12 ص 155 رقم 4117
[170]) رواه ابن أبي شيبة ج1 ص 490 رقم 477

قوله (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) قال الشنقيطي ظاهر هذه الآية الكريمة بحسب الوضع اللغوي . التخيير بين الكفر والإيمان . ولكن المراد من الآية الكريمة ليس هو التخيير، وإنما المراد بها التهديد والتخويف. والتهديد بمثل هذه الصيغة التي ظاهرها التخيير أسلوب من أساليب اللغة العربية ، والدليل من القرآن العظيم على أن المراد في الآية التهديد والتخويف . أنه أتبع ذلك بقوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) .

وفي الآية دلالة على وجوب تفويض نتائج الدعوة لله ، وأن يقتصر هَمُ الدعاة على قول كلمة الحق ،قال رسول الله ﷺ (**أحبُ الجهاد إلى الله كلمةُ حق تقال لإمام جائرٍ**) [171]، أي كلمة "لا إله إلا الله" فالذي يتأمل هذا الحديث يدرك متى قوة وتأثير كلمة الحق في صدع الباطل ، فلا يستهين بها ، بل هي أمضى سلاح في مواجهة الباطل ، بصرف النظر عن مدى التأثر اللحظي والآني بها ، فإنها لابد وأن تنبت ولا بد وأن تظهر ثمرتها في يوم من الأيام

قوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (29) وما يبعث على التأمل العميق في آيات الكتاب الحكيم، هو ذلك المشهد المهيب لـ"سرادق النار" وهي تحيط بالظالمين إحاطة السوار بالمعصم؛ فبعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وهي التي كانت بالأمس القريب ساحةً لخيلاهم، يتقلبون في أكنافها الواسعة، ويلهون على ضفاف أنهارها الجارية، إذا بالأقدار تطويهم في قمقم من العذاب المقيم. هناك، ينادون مستغيثين من هجير جهنم، فلا يأتيهم الغوث إلا بنكال أشد؛ ماءٌ كالمهل المغلي، تبخرت منه كل رحمة، يلامس الوجوه فيشويها قبل أن يصل الجوف.

إنها المفارقة الصارخة والتحول المروع في المآل؛ إذ تبدلت تلك القصور المنيفة التي اتخذوها في الدنيا متكأً ومرفقاً، لتستحيل اليوم سرادقاً من جحيم يطوق كبرياءهم. وشتان هنا بين هذا المصير المظلم، وبين مآل فئة مؤمنة اعتصمت بربها؛ أصحاب الكهف الذين هجروا زينة الدنيا ولجأوا إلى مغارة ضيقة في جبل، قائلين (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا) .فغدا ذلك الكهف الموحش بفضل الله مهداً دافئاً، ونبتت فيه أسمى معاني الراحة والسكينة؛ لينامو فيه نوماً هادئاً مطمئناً تحفه الرعاية الإلهية.

وعجباً لتقلب الأحوال؛ كيف استحال الكهف الضيق مرفقاً من رحمات، بينما انقلبت قصور الطغاة الشاهقة إلى سرادق موقدة، وبئس المرتفق.

قال ابن عاشور (والمرتفق) محل الاتفاق، وهو اسم مكان مشتق من اسم جامد إذ اشتق من المرفق وهو مجمع العضد والذراع ، سمي مرفقا لأن الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكئ عليه. فلما سمي به العضو تنوسي اشتقاقه وصار كالجامد، ثم اشتق منه المرتفق. فالمرتفق هو المتكأ، وشأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النار تهكم)[172].

---

[171]) صحيح كنوز السنة النبوية للألباني ج1 ص 156 رواه أحمد والطبراني : المعجم الكبير ج8 ص 282 رقم 8097

[172]) التحرير والتنوير ج15 ص 58

قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) (30) فالناظر لقصة أصحاب الكهف وقد اعتزلوا الدنيا كلها وحبسوا أنفسهم في الكهف مخافة أن يفتتنوا في دينهم قد يظن أنهم حرموا من المتاع ، ولكن الله تعالى بين في هذه الآية أنه لم يضيع أجرهم وقد أحسنوا العمل

فالعبرة ليست بكثرة العمل وإنما بإحسان العمل ، قال ابن تيمية في قوله (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) رُبَّ تَسْبِيحَةٍ مِنْ إنْسَانٍ أَفْضَلُ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ عَمَلِ غَيْرِهِ وَكَانَ إدْرِيسُ يُرْفَعُ لَهُ فِي الْيَوْمِ مِثْلُ عَمَلِ جَمِيعِ أَهْلِ الأرض)[173] ، وقال (فَإِنَّ الْإِسَاءَةَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِهَانَةَ بِالْأَمْرِ بِهِ وَالِاسْتِهَانَةَ بِنَفْسِ الْعَمَلِ وَالِاسْتِهَانَةَ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ مِنْ الثَّوَابِ ، فَإِذَا أَخْلَصَ الْعَبْدُ دِينَهُ لِلَّهِ وَأَحْسَنَ الْعَمَلَ لَهُ كَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَكَانَ مِنْ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[174].

قوله (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) (31) أشارت الآيات إلى حسن المرتفق في الآخرة ، وذلك لأهل الإحسان الذين اعتزلوا الدنيا وما فيها لأجل مرضاة ربهم ، ولم يبالوا بما خسروا فيها

قال رسول الله ﷺ (مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ)[175]

وقال رسول الله ﷺ (مَنْ لَبِسَ الذَّهَبَ مِنْ أُمَّتِي فَمَاتَ وَهُوَ يَلْبَسُهُ لَمْ يَلْبَسْ مِنْ ذَهَبِ الْجَنَّةِ وَقَالَ هَوْذَةُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ذَهَبَ الْجَنَّةِ وَمَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ مِنْ أُمَّتِي فَمَاتَ وَهُوَ يَلْبَسُهُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَرِيرَ الْجَنَّةِ)[176]

وعن عمر بن الخطاب يحدث أنه رأى تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ)[177].

يقول سيد قطب تعليقا على التضاد بين مرتفق أهل النار ومرتفق أهل الجنة (وفي ذكر الارتفاق في سرادق النار تهكم مرير . فما هم هنالك للارتفاق ، إنما هم للاشتواء! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك في الجنان . . وشتان شتان! وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن . للإقامة . تجري من تحتهم الأنهار بالري وبهجة المنظر واعتدال النسيم . وهم هنالك للارتفاق حقاً (متكئين فيها على الأرائك) وهم رافلون في ألوان من الحرير . من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف . تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع (نعم الثواب وحسنت مرتفقاً) !ومن شاء فليخترت . ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن شاء فليجالس

---

[173]) مجموع الفتاوى ج4 ص 378
[174]) مجموع الفتاوى ج18 ص 251
[175]) رواه البخاري ج18 ص 154 رقم 5385
[176]) رواه أحمد ج14 ص 190 رقم 6652
[177]) رواه البخاري ج15 ص 207 رقم 4532

فقراء المؤمنين ، وجبابهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفر ، فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباب ، التي تضم القلوب الزكية بذكر الله ، فليرتفق في سرادق النار ، وليهنأ بدردي الزيت أو القيح يغاث به من النار . .)[178] .

إذ تتجلى في هذا المشهد القرآني أبعاد المقابلة البيانية والمعادلة المصيرية بين ارتفاق أهل النار وارتفاق أهل الجنة، في صياغةٍ تفيض تهكماً وتقريعاً من جهة، وتنضح نعيماً وتكريماً من جهة أخرى:

إذ جاء ذكر "الارتفاق" في حق أهل النار على سبيل السخرية اللاذعة بوضعهم؛ إذ ليس ثَمَّ مِرْفَقٌ يُستراح إليه، وإنما هو لظىً يَشتوون بلهيبه، ومهادٌ من مهلٍ وغسّاق يَجرعون مرارته، جزاءً وفاقاً لِما استكبروا عنه في الدنيا.

وجاء ذكر ارتفاقٌ حق في جنات عدن في المقابل، حيث يتقلّب أهل الإيمان في النعيم المقيم؛ والأنهار تجري من تحتهم رياً وبهجة، والأرائك مَصَفَّةٌ لراحتهم، يُحلَّون فيها بأساور الذهب، ويرفلون في سندسِ الجنة وإستبرقها، فكانت بحقٍ نِعمَ الثواب وحسُنت مرتفقاً.

وللإنسان حريّة الاختيار فهو أمام مسؤوليته؛ فمَنِ استنكف في الدنيا عن مجالسة البسطاء من عُمّار المساجد—ممّن فاحت من جِبابهم روائح كدّهم وعبادتهم لكن زكت قلوبهم بذكر الله—آلَ مصيره بكبره إلى سرادق النار، ليرتفق هُناك بالدرديّ والقيح، ومَن رضي بمجالسة الأبرار، أورثه الله مرتفق الخلود والأبرار.

[178]) في ظلال القرآن ج5 ص 63